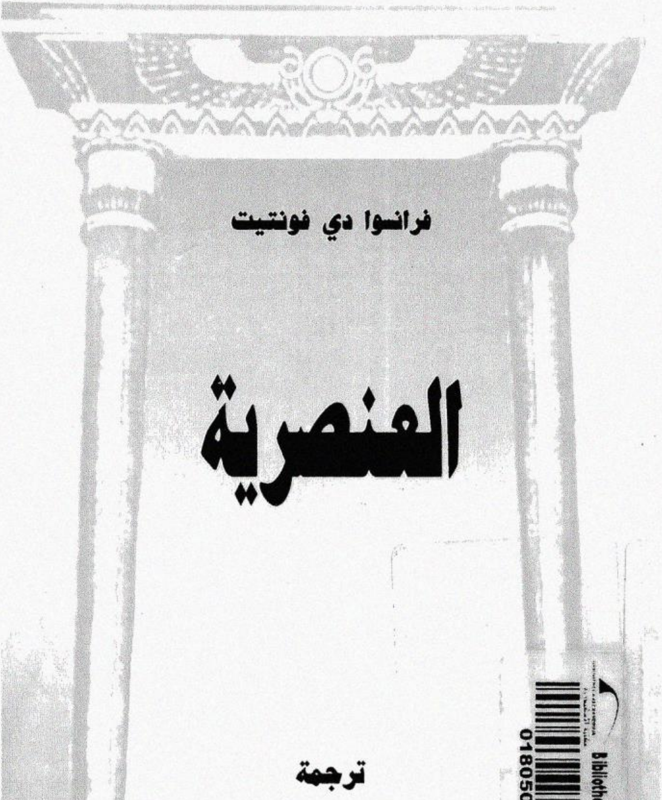


فرانسوا دي فونتيت

العنصرية

ترجمة

د. عاطف علبي

العنصرية

فرانسوا دي فونتيت

العنصرية

ترجمة

د. عاطف علبي

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1999م - 1420هـ

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام - ص.ب: 113/6311 لبنان
هاتف: 791123/4 / 802428(01) - 220924(03) - فاكس: 603654(01)
المصيطبة - شارع بارودي - بناية طاهر - هاتف: 311310 - 301030(01)

«أياً كان تعريف الإنسان فهو يشمل
الجميع دون تفرقة»

شيشرون

المقدمة

العنصرية والعرق

إن كلمة العنصرية شائعة الاستعمال في أيامنا لدرجة أن الكثيرين سيندهشون من ملاحظة أن الأمر يتعلق في الحقيقة بتعبير جديد؛ فهي غير موجودة في قاموس ليتره Le Dictionnaire Littré (1863 ـ 1877)؛ قاموس لاروس للقرن العشرين ـ Le Larousse du XX siècle (1932) هو بدون شك أول من قدم الكلمة على أنها تماثل «حزب، عقيدة العنصرين»، معرّفاً العنصري بـ «الاسم المُعطى للاشتراكيين الوطنيين الألمان الذين كانوا يدّعون تمثيل العرق الألماني الصافي، ويستثنون اليهود إلخ. . .»؛ قاموس اللغة الفرنسية Le Dictionnaire de la langue Française لبول روبير Paul Robert، يستعمل الكلمة في سنة 1962 بين جملة مشتقات من كلمة عرق ومقدماً التعريف التالي: «نظرية تسلسل الأعراق، القائمة على الاعتقاد بأن الحالة الاجتماعية تخضع للخصائص العرقية، مستنتجاً منها ضرورة الحفاظ على العرق المتفوق

بعدم التزاوج مع الأعراق الأخرى؛ ويفسرها أيضاً بالتصرف وفق هذه النظرية». من المفيد تتبع دخول العبارة وتطور تعريفها في قاموس لاروس الصغير المصوّر الذي يعكس بأمانة قبول الكلمة في اللغة، والذي يصدر بطبعة جديدة كل سنة. كلمة «عنصرية» لم تدخل في هذا القاموس حتى. . . 1946! وتعريفها فيه موجز: «نظرية تحاول أن تُثبت نقاوة بعض الأعراق»؛ يتغير في 1948 ليصبح: «نظرية ترمي إلى الحفاظ على النقاء العرقي في الأمة»؛ يبقى هذا التعريف على ما هو عليه حتى 1960 حيث يتغير ويزداد دقة. فيصبح عندها «النظام الذي يؤكد تفوق مجموعة اجتماعية على آخرين، ويوصي، بشكل خاص، بعزل هؤلاء داخل بلد (التمييز العنصري)»، وفي عام 1966 سيضم أو حتى يرمي إلى القضاء على أقلية (عنصرية معاداة السامية عند النازيين)؛ إنه التعريف الذي نجده في طبعة 1980؛ لكن في طبعة 1992، تزول هذه الإيضاحات الملموسة ولا يبقى سوى الإيديولوجيا و«التصرف»؛ بالمقابل، فإن المعنى الثاني يشير إلى: «موقف عدائي مطلق تجاه فئة معينة من الناس؛ العنصرية ضد حديثي السن»، ليس سوى انعكاس لاستعمال جانب خاص من المعنى ونتمنى من صميم قلبنا زواله إذا ما أردنا للكلمات أن تحتفظ بمعناها الحقيقي.

تقوم الشهرة التي تعرفها العنصرية في أيامنا على الفظائع التي ارتكبها النازيون خلال الحرب العالمية الثانية. فقد شكل القضاء المطلق وشبه العلمي على ملايين من اليهود

يعتبرون ممثلي عرقٍ مؤذٍ بشكل خاص الخلفية لمصير كلمة أصبحت بذلك غنية ومشبعة بالانفعالات. لكن بالرغم من هزيمة الهتلرية، فإن العنصرية اليوم في موضع إتهام في العديد من أنحاء العالم وينسب إليها الكثير من النزاعات والتوترات: مسألة الزنوج في الولايات المتحدة، «الأبارتايد» في إفريقيا الجنوبية، حالة اليهود في الاتحاد السوفياتي، العلاقات بين المستَعْمَرين والمستعمِرين، بين اليهود والعرب في الشرق الأدنى، ردات الفعل تجاه اليد العاملة المهاجرة التي يعيب عليها البعض بأنها «تأكل خبز الفرنسيين»: تلكم هي الأمثلة التي ترد على ذهن كل منا، ومن دون أن نعرف جيداً عما إذا كان الأمر يتعلق بالضبط بالعنصرية أو بمجرد العداوة الدينية، أو بالفارق اللغوي، أو القومي، أو بكره الأجانب... أين تبدأ العنصرية؟ أين تتوقف؟

تستند الدراسة العلمية للعنصرية التي سنقوم بها إلى تحليل مزدوج: تحليل الوقائع وتحليل الأفكار. فتعريف قاموس روبير نفسه يدعو إلى البحث في كلمتي نظرية وتصرف. ينبغي الاعتراف بأنه إذا ما شكلت العنصرية موضوع التكوّن المجرد بالنسبة لبعض «المفكرين» فإن النظرية كانت مصاحبة دوماً بالتصرف، بمعنى أنّ العنصرية، كممارسة، تختلف عن البناء المذهبي.

بوسعنا أن نسجل هنا فكرة تسلسل الأعراق؛ هذه الفكرة التي تشكل معطية أساسية بالنسبة للعنصري: هذا العرق

متفوق، الآخر متدنٍ، فلا مرور الزمن، ولا الانتقال الجغرافي بمقدورهما تغيير أي شيء في هذا الواقع: حالما ينتمي شخص ما إلى عرق، يصبح الموضوع حتمية ضيقة وملزمة. هذا التشاؤم المطلق للمذاهب العنصرية التي تجمد أعداءها في حالة لا مخرج منها ومن دون أن يكونوا مسؤولين عن ذلك شخصياً، وإنما لمجرد انتمائهم إلى المجموعة المكروهة، يشكّل عنصراً أساسياً للموقف العنصري.

تجدر الاشارة إلى أن واقع وجود الأعراق البشرية ليس موضع شك، وليس التحقق من وجود هذه الأعراق هو الذي يغذي العنصرية بشكل رئيسي. من دون شك يصعب تعريف العرق؛ فالفئات القديمة التي كانت تُدرّس فيما مضى في الكتب المدرسية البسيطة: العرق الأسود، أو الأصفر والأبيض، موجودة حقاً. إنكار وجود الأعراق منهج غالباً ما يؤدي، إلى الالتباس من قبل مَن يستعمله لاستبعاد البراهين العرقية. فبقدر ما كانت العنصرية الهتلرية قد اختارت اليهودي كهدف مثالي، فإن المناهضين للعنصرية قد جهدوا للبرهنة (ومن دون عناء كبير) على أن العرق اليهودي بحد ذاته غير موجود؛ الأمر الذي يجعل في آن معاداة السامية العنصري من دون غرض وبلا جدوى. انطلاقاً من ذلك لم يعد هناك سوى خطوة للأخذ بعدم وجود الأعراق بحد ذاتها. تجاوز البعض هذه الخطوة بسرعة: لكن أيضاً وجدوا

أنفسهم في وضع أكثر من عسير عندما تعلق الأمر بشكل خاص بالزنوج، إذ أخذ العنصريون يسألونهم عما إذا لم يكن هناك فرق في اللون واضح للعيان بين الكونغولي والنرويجي. فتنهد روجيه إيكور Roger Ikor وهو يقول: «آه! هل سنكون سعداء، نحن مناهضي العنصرية، إذا ما كان السود بيضاً!!!» إن إنكار الواقع العرقي ليس بحد ذاته بموقف ممكن، على اعتبار أنه يقوم على إنكارٍ للواقع القائم، وهذا دليل على تشوش كبير في التفكير. في هذا الصدد كتب مقرر الأونسكو م.ل.س. دون M.L.C. Dunn في تموز 1951: «إن العالم الأنتروبولوجي مثله مثل رجل الشارع، كليهما يعرف أن الأعراق موجودة: الأول لأنه يستطيع تبويب الأنواع المختلفة للجنس البشري؛ الثاني لأنه لا يمكن الشك في شهادة حسّه».

مفهوم العرق

أفضل نقطة إنطلاق، من أجل تعريف العرق، توجد في العلوم الطبيعية، لأن التطبيق الرئيس لهذا المفهوم كان في عالم الحيوان: إنه يظهر بمثابة فرع للنوع. والخصائص الجسمانية هي التي تفرق بين المجموعات البشرية من حيث العرق: وهنا فإن اللبس في المصطلحات والتشابهات المغلوطة كثير بشكل خاص وحتى مزعج. في هذا الصدد كتب مارسلان بول Marcellin Boule: «حتى اليوم، وكيف ما

كان الحال، فإن المؤلفين المرموقين والأكاديميين المشهورين؛ عندما يعالجون موضوع الجماعات البشرية، يستعملون كلمة عرق في معنى مغلوط كلياً... وبناءً عليه، ليس هناك من «عرق برتون» ـ Breton، ولكن هناك شعب «برتون»؛ وليس هناك من عرق فرنسي، ولكن هناك أمة فرنسية، وليس هناك من عرق لاتيني، ولكن هناك حضارة لاتينية». من دون شك أنه تأتت عن مثل هذا اللبس في المصطلحات أسطورة الطوابع التي صدرت أيام الجمهورية الثالثة عام 1937 وعام 1939: «من أجل إنقاذ العرق» (إيفير وتيليه ـ Yvert et Tellier، رقم 356 و419)، أي عرق؟ عدوى العصر؟ عدم مبالاة أو بالأحرى جهل بالكلمات...

لقد أمكن تعريف الأعراق البشرية «كمجموعات طبيعية لأناس لهم مجموعة من الخصائص الجسمانية المشتركة الموروثة، مهما كانت من جهة أخرى لغاتهم، وتقاليدهم، وقومياتهم». تشمل عبارة «الخصائص الجسمانية» خصائص علم التشريح والخصائص الفيزيولوجية وكذلك السيكولوجية وحتى المرضية، إذا ما كانت وراثية: يصبح لها بالتالي قيمة أنتروبولوجية وتحدد العرق؛ هذا في حين أن الخصائص التي تتوافق مع جماعة سياسية تحدد أمة أو دولة؛ أما الخصائص الحضارية فهي غالباً ما يشار اليها في أيامنا، بالعبارة الموفقة إلى حد ما، عبارة إتنية: بناءً عليه أيضاً فإن توزيع شعوب أوروبا إلى جرمان، لاتين وسلاف، إذا ما كان له أهمية

حقيقية من ناحية اللغة، فليس له أية أهمية عرقية: لا يمكن الكلام المجدي عن العرق الآري، هذا النعت يستعمل للاشارة إلى مجموعة من اللغات المستعملة من قبل أعراق مختلفة؛ كما أنه لا يجوز الكلام عن أعراق سامية، بل عن لغات سامية.

1 ـ **الخصائص التَشَكُّلية والقابلة للقياس والتي سُجّلت أهميتها منذ أمد طويل هي:**

أ ـ لون الجلد. هو يخضع لنسبة كثافة حبيبات مادة تدعى الخِضاب في باطن الجلد. إذا ما وُجد الخِضاب بكمية كبيرة، فإنه يميز العرق الأسود؛ وإذا ما امتزج لون الدم الأحمر الذي يسري تحت الجلد بهذا الخِضاب، نحصل على اللونيات الصفراء للعديد من الآسيويين؛ وأخيراً فإن غياب الخِضاب يؤدي إلى اللونية الباهتة والزهرية لأوروبيي الشمال. وهذا يسمح بفهم العدد اللامتناهي من الأنواع التي يمكن أن نلتقي بها. ومن المناسب أن نضيف بأنه لا يوجد عرق «أحمر»: عندما حط الأوروبيون الرحال في العالم الجديد في أواخر القرن الخامس عشر، استقبلهم رجال كانوا قد دهنوا أجسامهم باللون الأحمر لأجل بعض الاحتفالات: الهنود الأميركيون هم ذوو بشرة مصفرّة أو سمراء لكن قطعاً ليست حمراء.

ب ـ شكل الشعر. هو لا يخلو من أهمية؛ فإذا ما كان منتصباً مع جزء دائري هو خاص بالوجوه الصفراء؛ وإذا ما

كان متموجاً، هو منسدل ويوجد بشكل خاص في أوروبا؛ وإذا ما كان جعداً، يأخذ عند القص شكلاً بيضوياً ويلتف بلولبات كثيفة على الرأس.

ج ـ **القامة**. هي أيضاً من خصائص العرقية. إذا ما أخذنا بمثابة أساس المتوسط التقريبي لجنس الذكور البشري 1,65 م، تصبح القامات المرتفعة فوق 1,70 م والمنخفضة دون 1,60 م؛ والقامات الأقل من 1,50 م تميز بعض الأعراق المعروفة باسم الأقزام.

د ـ **شكل الرأس**. وهو يبوب الفرد في مختلف الفئات وفقاً للمؤشر الرأسي، وهو الحاصل بين عرض الجمجمة وطولها؛ فعندما يكون هذا الحاصل أصغر من 0,75 يصبح الإنسان مستطيل الرأس، لكنه يكون قصير الرأس إذا ما كان الحاصل أكثر من 0,80. وفيما بين 0,75 و0,80 يكون الفرد متوسط الرأس. هناك عوامل أخرى يمكن أن تؤخذ بدقة بعين الاعتبار: درجة تطور الفكين، حساب المؤشر الأنفي، شكل فتحة الجفن. فكل هذه العلامات هي خارجية بشكل أساسي ومن السهل تلمسها.

فعلى هذه العلامات الفارقة، أو بعضها، تقوم أقدم تبويبات الجنس البشري التقليدية: من العهد القديم، الذي ميّز بين أبناء شام Cham، سيم Sem وجافيت Japhet إلى تبويب لينه .Linné A العلمي الذي قسم الإنسان العاقل

Homo-sapiens إلى أربع مجموعات هي: الأوروبية، الآسيوية، الإفريقية والأمريكية. وقد أشار بلومنباخ Blumenbach في أواخر القرن الثامن عشر إلى أهمية تقسيم البشرية إلى خمسة أعراق. أما غيوفروي سانت ـ هيلير Geoffroy Saint-Hilaire (1860)، فقد ركّز على الوجه من جانبيه، في حين ألحّ توبينار Topinard (1885) قبل أي شيء آخر على شكل الأنف. وقد حوى تبويب دينيكر Deniker (1900) 27 عرقاً تتضمن 22 فرعاً، تشكّل الأساس للتبويبات اللاحقة: أيضاً قدّم هنري الخامس ڤالوا Henri V. Vallois جدولاً من 27 عرقاً متجمعاً في أربع مجموعات: البدائية، السوداء، البيضاء والصفراء.

2 ـ خصائص علم الوراثة

إن علم الوراثة، علم حديث نسبيّاً. وقد أتى بعناصر غير معروفة لتاريخه. بالإمكان تعريف عرق بشري ما، حسبما كتب م.و. بويد M.W.Boyd في مؤلفه الشهير «**علم الوراثة والأعراق البشرية**»، بأنه «مجموعة بشرية تختلف بشكل ملحوظ عن مجموعات بشرية أخرى من خلال تكاثر جينة أو عدة جينات تمتلكها».

أ ـ الفئة الدموية. هي أول عنصر يمكن أخذه بعين الاعتبار. يجب التسجيل فوراً، أنه أيّاً كانت القدرة العاطفية والرومنطيقية التي تأتت عن كلمة دم وتراكمت في الذاكرة البشرية في ما يتعلق بالعرق (دم صافٍ، دم ملكي،

إلخ...)، فالأمر يتعلق هنا بمرجعية مجرد بيولوجية[1] وذات خاصية وراثية صرف.

بعيداً عن تأكيد كره أو حتى وجهة نظر العنصريين، فإن وجود هذه الفئات يسمح بالاشارة إلى وقائع مدهشة بالنسبة لهم وحتى محزنة... الأوروبي الذي يحتاج إلى دم، يمكن أن يُنقذ بدم «زنجي» أو «صيني» بصحة جيدة ينتمي إلى الفئة الدموية نفسها التي ينتمي إليها هو، لكنه يمكن أن يقتل بدم أخيه بحد ذاته، إذا ما كان هذا الأخير ينتمي إلى فئة دموية لا تتناسب وفئته (وبالشروط نفسها فإن الـ .S.S النازي يمكن أن ينقذ بدم يهودي!!!). في أيامنا هناك الكثير من الأنتروبولوجيين وعلماء الوراثة الذين يعتبرون أن الفئات الدموية تشكل أفضل أساس لبناء تبويب عرقي. ذلك أنها تقدم، بالفعل، عدداً من الأفضليات، منها واقع كونها تنتقل بطريقة محددة بمقتضى قانون منديل Mendel، كونها لا تتأثر بالعوامل الخارجية، وأخيراً كون كثرتها في مجموعة بشرية ما يشكل خاصية ثابتة كل الثبات.

إذا ما حوى سكان فرنسا 43% من الفئة الدموية O، 42% من A، 11% من B و3% من AB، فإن عند الباسك

(1) وجود أو عدم وجود الأغلوتينين Agglutinine: مادة ملزنة، راصَّة، والأغلوتينوجين Agglutinogène: مادة مولِّدة للمضاد، وهي موجودة في الميكروبات والكريات الحمراء تجعلها قابلة للتلزّن - المترجم.

المعتبرين من أصل خاص يوجد 57% من O، 41% من A، 1% من B ولا شيء من AB. وبالتالي فالجينة B تكاد تكون غير موجودة. وعند بعض الفئات فإن نسبة التكاثر مرتفعة بشكل خاص: أيضاً عند هنود أميركا 95% منهم ينتمي للفئة O وتصل إلى 100% لدى تيكونا البيرو Tikuna du Pérou، والجينة B منتشرة بشكل خاص في آسيا الوسطى وفي قسم من إفريقيا المشتمل على وادي النيل بينما نسبتها نادرة في أوروبا. فاكتشاف فئات الدم لا يحصل فقط في المكان وإنما أيضاً في الزمان: بناءً عليه الجينتان A وB أمكن التعرف عليهما في المومياء المصرية، هناك نوع من علم الآثار الدموي في طريق التكوين. فبالامتناد إلى جداول مفصلة عن التحليل الدموي تمكن بويد Boyd من الوصول في عام 1953 إلى خمسة أعراق اعتبرها غارن Garn في 1961 تسعة ودوبزهانسكي Dobzhansky في 1962 وصل بها إلى 34.

ب ـ **عامل البندر**. عامل ريزوس Le facteur Rhésus[1]، هو يشكّل أيضاً فارقاً وراثياً. إذا ما حقن دم ماكاكوس ريزوس في أرنب فإنه يُحدث في مصل دم هذا الأخير تشكل الغلوتينين المضاد لريزوس. هذه الفلوتينينات هي قادرة على رصّ كريات بعض الناس. فيقال عنهم يحملون عامل ريزوس

(1) مادة في دم القرد وبعض البشر بسبب بعض الحوادث عند عمليات نقل الدم ـ المترجم.

أو أيضاً لديهم ريزوس إيجابي؛ وهم يشكلون حوالي 85% من السكان الأوروبيين. الناس الآخرون لديهم ريزوس سلبي: إذا ما شكلوا 15% من سكان أوروبا، فهم غير موجودين في الأجزاء الكبيرة من العالم: لدى هنود أميركا البابو les Papous، السياموا les Siamois؛ عامل ريزوس السلبي هو في منتهى الندرة لدى الصينيين واليابانيين، ولكن نسبياً كثير لدى الباسك (30%).

ج ـ حساسية التذوق للتيوفنيلكاربامبد La Thiophénylcarbamide تشكل عاملاً وراثياً آخر أخذ علم الأنتروبولوجيا بجمع معطياته. إنها خاصية وراثية من نوع خاص يقوم على «فقدان التذوق» بالنسبة لهذه المادة الكيماوية. فهي مرة المذاق بالنسبة للبعض، وتغدو من دون مذاق للبعض الآخر. لدى السكان الأوروبيين، هناك حوالي 75% من الذواقة، وتصل هذه النسبة إلى 100% عند هنود أميركا. هذا في حين تصل في بلاد الغال نسبة اللاذواقة إلى أكثر من 50% من المجموع: بالإمكان ذكر عوامل وراثية أخرى مثل الجينة المفرزة، وجود أو عدم وجود الشعر على الإصبع الثاني من اليد، الخ...

3 ـ مجموع المعارف

إن مجموع المعارف المتأتية عن الأبحاث التَشَكُلية أو الوراثية لا تسمح، على ما يبدو، للبيولوجيين بتأكيد الأطروحات العنصرية. بصدد هذا الموضوع كتب بويد ما

يلي: «التبويب الوراثي للأعراق هو أكثر موضوعية ويقوم على أسس علمية أفضل من التبويبات القديمة». وتابع بظرف قائلاً: «في بعض أجزاء العالم يعتبر الفرد في المرتبة «الدونية» إذا ما كان ذا بشرة غامقة مثلاً، لكن ولا في أي مكان في العالم يُستبعد من أفضل المجتمعات مَن يقتني جينة فئة A أو حتى جينة ريزوس السلبية».

بغرض وضع النقاط على الحروف مما يمكن استخلاصه من المعارف العلمية ذات الصفة البيولوجية صدرت عدة بيانات عن مركز الأونيسكو في باريس: من المناسب الإشارة هنا إلى **الإعلان حول العرق** في تموز 1950، **والإعلان حول العرق والفروقات العنصرية** في حزيران 1951؛ يلي ذلك المقترحات حول **المظاهر البيولوجية للمسألة العنصرية** التي وضعها خبراء الأونيسكو في موسكو (آب 1964) وأخيراً **الاعلان حول العرق والتعصب العنصري** في باريس (أيلول 1967). كل هذه الوثائق كانت موضوع دراسات معمّقة من قبل السيدة ج. هرش J.Hersch. لم تكن هذه النصوص تستجيب فقط لاهتمامات البحث العلمي، بل كانت موجهة أيضاً بالرغبة السياسية بالمعنى الأوسع للكلمة، أو الرغبة الأخلاقية، تجنباً لتحريف أحدث المشاهدات عن علم الوراثة والبيولوجيا والابتعاد عن الغرض منها، وتعميمها من دون حق، لصالح مختلف العنصريات التي تستغل نفوذ وحظوة العلم.

أكّد إعلان 1951 على وحدة الجنس البشري وعلى كون كل الناس قد انحدروا من نفس الأرومة. كما ركّز على عدم تطابق المجموعات السياسية، والدينية، والثقافية مع المجموعات العرقية؛ ولطّف أيضاً بعض ما ترمي إليه التبويبات العرقية، في ما يتعلق بالخصائص القابلة للقياس؛ وبحث في التقليل من العلاقة بين المجموعة العرقية والاختبار السيكولوجي. وتشير السيدة هرش إلى أنه بالرغم من القدر الذي تمكنا به من تحليل الفروقات المشاهدة فإننا لم نحصل على أي دليل يدعم تفوق أو دونية هذا أو ذاك من المجموعات، وبالتالي فلا يبدو أنه كاف ليقيم حقوق الإنسان على أسس ثابتة. لكن يبقى له فضل الطرح الصحيح لسؤال لم يعد يتوقف على هذه أو تلك من المعارف البيولوجية ولأنه بالتالي سياسي، يفترض وجود مسلمة أخلاقية وفلسفية. بالقوة الحسية نفسها تشير أيضاً السيدة هرش إلى أن محاربة الأحكام المسبقة العنصرية القائمة على تأكيدات شبه علمية والتي تستند إلى البيولوجيا، ليست بدون شك الطريقة الفضلى لمجابهتها.

أما مقترحات موسكو آب 1964 كانت أكثر وضوحاً، فركزت على الطرق الخاصة للتطور البشري، مع الإشارة بشكل أساسي إلى أهمية العوامل الثقافية: «الإنسان منذ منبته يمتلك وسائل ثقافية، بدون إنقطاع أكثر فاعلية للتأقلم من التركيب غير الوراثي» و«الفروقات بين الإنجازات لمختلف

الشعوب بالإمكان تفسيرها بشكل كامل بتاريخها الثقافي». كما أشارت السيدة هرش إلى أن العرق لم يُنظر إليه في كل هذه النصوص إلا من وجهة نظر بيولوجية، وإلى أنه من وجهة نظر عالم الاجتماع، «الحقيقي هو فكرة كون هذا العرق هو موجود في الواقع في المفاهيم العادية لرجل الشارع؛ هذا المفهوم المبهم وغير العلمي وأي ما كان، يشكل الحقيقة الاجتماعية، والذي في شبكة الوقائع، يُحدث نتائج تتزايد أهميتها مع الوقت». نحن على كامل الوفاق مع السيدة هرش وسوف نلتقي لاحقاً بهذا المفهوم عندما نحاول أن نفسر العنصرية المعاصرة. كل البيانات السابقة قد وضعت بناءً لطلب الأونيسكو من قبل خبراء اجتمعوا باسمهم الشخصي؛ لكن في تاريخ 27 تشرين الثاني 1978، لأجل إعطاء الوزن والشهرة الأكبر لهذا النوع من الوثائق، وافق المؤتمر العام للأونسكو المجتمع في باريس بالإجماع وبالتصفيق على إعلان جديد حول العرق والأحكام المسبقة العنصرية، هو ثمرة جهد خبراء حكومات مثلت أكثر من مائة دولة؛ المزيّة الكبيرة لهذا النص الجديد هي في تأكيده على الحق في الاختلاف بين المجموعات البشرية، وإعلانه في الوقت نفسه وحدة الجنس البشري؛ الخصوصية والكُلّية، الاختلاف والتضامن متضادة في الظاهر غير أنها في حقيقتها مُكمِلة.

لكن المناقشات حول مثل هذه المسائل لم تقفل مطلقاً.

أعمال كل من أرثور ر. جنسن Arthur R. Jensen (1969) وهانز ج. إيسنك Hans J. Eysenk (1973) تنحو إلى التأكيد على الدونية العقلية عند السود وتركز على تفوق العامل البيولوجي في تطور الإنسان. بالعكس، فإن جاك روفيه Jacques Ruffié (1976) يلفت النظر إلى أن هذه الأطروحات تتضمن جزءاً كبيراً من الاعتباطية، لكونها تقوم في الأساس على دراسة الحاصل الذكائي الذي يشير ألبير جاكار Albert Jacquard، إلى عدم ثباته ودقته؛ إذ ينبغي الاهتمام بالوسط الثقافي والعناصر السيكولوجية والسوسيولوجية. أخيراً، في عام 1979، أسس م.ر. غراهام M.R. Graham في الولايات المتحدة «بنك المني لجائزة نوبل». يقوم هذا الاختراع على الإيمان الساذج والشاذ بأن التلقيح الإصطناعي للنساء من النوعية الرفيعة بالمني لجائزة نوبل سيزيد وبشكل ملموس نسبة العباقرة في أحفادهن... إن المَسْخَرة في الواقع لا تعدم الحياة دائماً!

أما نحن فنتبنى تماماً استنتاجات ج. روستان J.Rostand: «الخطأ الذي ينبغي تجنبه... هو الخلط بين الدراسة العلمية للتنوع العرقي وبين البناء السياسي للعنصرية، سواء أردنا من هذه الدراسة الحصول على دليل يدعم النظرية العرقية، أو أردنا، من جراء كراهيتنا لهذه النظرية، الذهاب حتى إلى الشك في حقيقة الفروقات العرقية».

⊛ ⊛ ⊛

كل هذا يسمح لنا فهم لماذا نُفرد في هذا الكتاب حيزاً كبيراً للتاريخ والمذاهب.

1 ـ يبدو أن للتاريخ أهمية خاصة في الموضوع: فالعلاقات بين أناس من عروق وقوميات مختلفة ليست بالظاهرات الجديدة والمعاصرة؛ والطريقة التي كانت تنتظم بها هذه الروابط، ومظاهر العداوة أو اللامبالاة، أو الاستلطاف المصاحبة لها يمكن أن تبدو ذات أهمية بمعنى العنصرية، إما بإعلانها، إما على العكس بدفعها بعيداً عن الظهور. هكذا فحالة الاستعمار والعلائق بين المستعمَرين والمستعمِرين جميعها تتسبب في قضايا موسومة بالعنصرية. والأعمال الممتازة لـ م. ميمي M.Memmi يبدو لنا أنها قد برهنت عليها بشكل خاص. لكن الأمر بدون شك لم يكن هكذا في كل العصور وفي كل الأمكنة: من المحتمل أن تتراءى الأمبراطورية الرومانية في الذاكرة الجماعية لأناس الغرب كأنها التجربة الوحيدة للاستعمار الناجح...

2 ـ المذاهب ودورها تؤلفان عنصراً رئيسياً لأسباب كثيرة. إنها قبل كل شيء تُذكر كثيراً بسرعة، في مراجع رمزية لبعض المؤلفين الذين نسبت إليهم خطأ من جراء الجهل بهم، أفكاراً لم تكن لهم مطلقاً. إنها كانت، فضلاً عن ذلك، على صلة حميمة بالتاريخ العام للفكر البشري: قبل عصر النهضة قلما استخدم الناس لجنسهم الخاص مفهوم العرق. وهنا بدا تطور العلوم الطبيعية الإضافة الأساسية التي

لا غنى عنها لمسيرة في الفكر ستحاول إخضاع الجنس البشري لترتيبات وإحالات شبيهة بما يمكن إدراجه في علم الحيوان أو علم النبات. ومن أجل دراسة الإنسان، ذات حرة لانعتاق وجود أعراق كبيرة، الإغواء كان كبيراً لداعي الدخول في خصوصية الواقع الإنساني لإصدار أحكام قيمة على الاستعدادات أو القوة الكامنة لكل مجموعة ومنح بعض الفئات تحديدات نهائية جذرية للتفوق أو الدونية. تأويلاً لشرح شسترتون Chestertorn، نستطيع القول بأن العنصرية هي نتاج التمييز البيولوجي البالغ درجة الجنون. ثمة وجود هنا لهيولى للتعميم والشرود التخيلي غير الخطرين لو بقيا في حدود أعمال غوبينو Gobineau، شامبرلين Chamberlain أو لابوج Lapouge، إذ إنه في نهاية المطاف، مَنْ تناولها هم قلة. لكن انتشار فكرهم الخالي، في الحقيقة، من الأساس العلمي، حصل بفضل التبسيطات التي ازدانت بالطبع بلغة مدعية وأعطت لكتاباتهم الشكل العلمي. لذا انتشر هذا العلم المغلوط في أعمال الدرجة الثانية: الروايات الرخيصة، مقالات النقد، الكراريس، ومختلف النشرات الهجائية؛ والصحافيون الفاشلون في الأقاليم استعادوا الموضوعات العنصرية وتوسعوا فيها بحماس منقطع النظير. فقد استعملوا، وكيفما كان الأمر، وفي كل المناسبات مصطلحات الآري، السامي، الهندوأوروبي، والسنسكريتي، ونقاوة الدم، إلخ. باختصار متاعاً كاملاً من الأوصاف أو النعوت كانوا يفخرون

بعرضها تحت نظر قراء سليمي الطوية متوسطي الثقافة، لكنْ الذين كانوا يجدون صعوبة في واقع الحال ـ ولسبب بديهي ـ في تبيُّن المضمون بدقة. وبحكم اعتياد كل فرد ـ بفضل ذلك ـ على كراهية سهلة تجاه المجموعات البشرية التي تختلف عنه؛ هذا مع أصلح ضمير وأوفر يقين لأن كل هذه المفاهيم كائنة تسبح مختلطة بلا نظام في قشرة من العلم التي منها يُرتاب بأنها موسومة بالدجل المحض والغش. هكذا يظهر لنا دور المذاهب العنصرية الأساسي هنا؛ في الحقيقة، إن المرونة السيكولوجية والتحليلية ـ النفسية التي للعنصرية لم تكن هكذا مُغْفلة، فقد كان على الأغلب موضع دراسات كثيرة وأوصاف بنوع رائع (لاسيما من قبل م.م. موكورب MM.Maucorps، ميمي وهيلد Held؛ كومارمون Comarmont ودرشيه Duchet؛ ڤاريه Varet، مدام غيومين Mme Guillaumin وآخرين)؛ وإذا ما كانت هذه الدراسات ضرورية لفهم ردات فعل الفرد أو الجماعة أمام ظاهرة «الغَيْرِيَّة»[1]، لكنْ يجب ألاّ يغيب عن بالنا أن الغربيين، ومنذ أكثر من قرن من الزمن، كانوا يُغذَّون بعدد من الكليشيهات والأساطير والمُقَوْلَبات[2] المضللة، الناجمة كلها عن المذاهب

---

(1) ما يخص الغير في مقابل الأنا ـ المترجم.

(2) جمع مقولب هو سلوك مكرر على نحو لا يتغير تعوزه الصفات الفردية المميزة ـ المترجم.

العنصرية المضخمة والمنتشرة. كل ذلك أرخى بثقله على كواهلهم وأنتج عدداً من ردات فعل عنصرية، بفعل تشجيع جماعي ومخرب للفكر مدة طويلة.

الفصل الأول

المقدمات

منذ فجر التاريخ، نحن نمتلك دليلاً دقيقاً لكنْ منفرد يأخذ لون الجلد موضع النظر. الأمر يتعلق في المسلّة التي نصبها الفرعون سيزوستريس الثالث Sésostris III في القرن التاسع عشر ق.م. في جنوب مصر والتي كتب عليها: «السفر من هذه الحدود عن طريق البر أو عن طريق الماء، بواسطة قوارب أو صحبة قطعان محظور على كل أسود باستثناء الذين يرغبون في السفر لأجل البيع أو الشراء في أحد المتاجر. أولاء الأخيرون سيستقبلون بالترحاب، غير أنه يُمنع إلى الأبد كل أسود، في كل الحالات، من نزول النهر (النيل) بالقارب، وراء الـ هيه Heh». فالتدبير هنا يستجيب، على ما يبدو، للقرارات من المستوى السياسي أكثر من تلك العائدة للعرق بحد ذاته.

ينبغي الاشارة أن مثل هذه التعليمات كانت بالكفاية قليلة الوجود. ثمة وجود لحروب كثيرة قد حدثت بشكل قاس

ووحشي حتى إنه بالإمكان تسميتها بما يُطلق عليه اليوم الإبادة الجماعية: البغض للأجانب من دون شك كان موجوداً، البغض بسبب من العرق لم يظهر. كان اليونان ينعتون «بالبرابرة» كل الذين هم خارج نطاق الهيللاد l'Hellade: لكنّ العبارة لم تكن في الأصل تحمل المعنى الاحتقاري الذي ستتلبسه فيما بعد كنظير طاغٍ أو وحشي. من دون سخرية، ذكر هيرودوت أن «المصريين يدعون برابرة كل الذين لا يتكلمون لغتهم» (وهكذا يصبح الإنسان دوماً من البرابرة بالنسبة للغير...)، في حين ذكر توسيديد Thucydide أن «هناك من الصفات الأخرى ما يكفي للبرهان على أن العالم اليوناني القديم كان يعيش بطريقة شبيهة بالعالم البربري الحالي». ما من شك أننا نجد عند أرسطو عناصر لنظرية الرق بالطبيعة، لكن بالنسبة لهذا الموضوع فالفيلسوف بحد ذاته أبعد من أن يكون جازماً، ولا يبدو أنه يتكلم عن مفهوم العرق؛ ففكرة العرق وبالأحرى نتائج التفوق والدونية التي يمكن استخلاصها هنا تبدو غريبة عن الفكر اليوناني: فهيرودوت لم يخفِ إعجابه بسكان إثيوبيا (الذين كان يوجد بينهم من دون شك السود): إذ يقول «الناس فيها هم الأكبر والأجمل والأطول عمراً». في روما سنجد أفكاراً عالمية، بسعة إذا ما استندنا إلى شيشرون، الذي يقول: «يختلف البشر بالمعرفة، لكنهم متساوون في الاستعداد لتقبل المعرفة؛ ما من عرق أخذ بطريق العقل لم يصل إلى الفضيلة». إننا نجد

بالتأكيد عن هذا الكاتب أو ذاك، في التاريخ القديم، آراءً تُنبئ عن الأنانية والبغض لكل ما يختلف عن حقيقة الشيء المألوف أو يُدانيه، لكن، يبدو، أن آثار الفكرة التي تقول بحسب عرقٍ مختصٍ لبعض البشر دون الآخرين بشكل رئيسي ونهائي، آثار قليلة.

ثمة حالتان لا بد من تفحصهما بعناية: أولاً الرق ثم وضعية اليهود وأوائل ظواهر ما سيسمى بمعاداة السامية. نحن نظن أننا هنا تجاه مقدمتين للعنصرية، ونعطي هنا لكلمة مقدمة معناها الكامل والأصلي، بمعنى الواقع المتقدم على واقع آخر. لا ريب في وجود التعاقب الكرونولوجي وفي حقيقة سمات «الآخر» الكائن أيضاً، على اعتبار أن الرق في التاريخ القديم لم يحتفظ طويلاً بخاصيته العنصرية، والممارسات العدوانية لمعاداة السامية تُفسر بأسباب أخرى مغايرة للفارق العرقي (الذي لم يوجد قط) لكن من غير المحتمل إذ ذاك تصور بأنه وليد اختراع في يوم من الأيام.

I ـ الرق زمن الرومان

كان وضع الرقيق في التاريخ القديم بشقيه الشرقي والمتوسطي، في منتهى التغيّر بحسب العصور والشعوب، ودراسته المفصّلة تخرج عن نطاق هذا المؤلف. ففي وسعنا إبداءُ ملاحظة هامة في ما خصّ إحدى مؤسسات الرق الأولى المعروفة: الرق الروماني. من دون نكران أن الرق القديم

كان من النوع «اللطيف»، أي أنه شكّل تلطيفاً لمصير الأسرى بإنقاذهم من الموت، لكن يبقى صحيحاً أن الرق في البدء وبالتحديد كان غريباً عن المدينة الرومانية. منذ حوالي أربعين سنة حاول هنري ليفي ـ برول Henri lévy-Bruhl أن يبرهن بنجاح على ما نعتقد، على أن في روما القديمة: 1 ـ كل رقيق هو غريب؛ 2 ـ كل غريب هو رقيق. تكفي الإشارة إلى واقع أن المواطن الروماني لا يمكن أن يصبح رقيقاً في قلب المدينة الرومانية، بل يصبح رقيقاً خارج روما (ما وراء التيبر Trans Tiberim)، وأن الغريب يخاطر بقوة بأن يُحكم بالإعدام إذا ما دخل المدينة من دون كتاب توصية يسمح له بأن يصبح تابعاً. ذلك لا يعكس في الحقيقة فارقاً عنصرياً، لكن هنري ليفي ـ برول استطاع أن يكتب في سنة 1931: «إنطلاقاً من هذا المفهوم الذي يعتبر أن الرقيق لا يمكن أن يكون مواطناً، بالضرورة هو، شخص غريب عن المجموعة التي يعيش في وسطها، آثار هذا الأمر باقية حتى الأزمنة المعاصرة. ففي أي مرحلة يتعرض فيها الرق للهجمات الشديدة، فانه لا يحتمل إلا إذا ظهر الرق بشكل طبيعي يختلف عن مظهر المواطن، إلا إذا تبدى الفارق الإتني للنظر. كما أن الرق الذي دام أطول مدة في القرون الوسطى هو الرق العربي وفي القرن التاسع عشر استرقاق الزنوج في أوروبا وأميركا. هنا كما يحدث كثيراً، يظهر الجوهر جليّاً عندما تكون المؤسسة في أوج حيويتها».

هذا التصور اقتضى في روما أن يحل محل فكرة الرق المعتبر بمثابة السقوط الاجتماعي. يصبح إذ ذاك عقاباً يمكن أن ينزل حتى بالمواطنين الرومان حين يقترفون بعض الجرائم. مهما يكن الأمر، إن م. لنجيليه M.Lengellé كتب عن حق: «أن مؤسسة الرق هي بداية عدم مساواة بين المجموعات البشرية. ولم يستطع شيء أن يوقف مسيرتها التي أدّت إلى ما يمكن أن نسميه اليوم العنصرية».

II ـ اليهود ومعاداة السامية

1 ـ اليهود في التاريخ القديم قبل المسيحية

أ ـ الإنجيل: يقدم الإنجيل أحفاد آدم موحدين في نوح الذي عمر أبناؤه الثلاثة سم Sem، شام Cham وجافت Japhet كل الأرض. حينما رحل إبراهيم، إسحاق، يعقوب والأسباط الإثنا عشر، أصبح أخيراً للشعب اليهودي وجودٌ خاص، لم يكوّن أبداً من أجل إتنية خاصة، لكنّ جماعة دينية مميزة بالإيمان التوحيدي العميق. وكان قد ذُكر أنه في سفر الخروج ظهر ما شكل لاحقاً السلوك الموجب للعنصرية: تحميل أقلية ما كل الجرائم من أجل تبرير القمع؛ لكن بالمقابل فإنّ جروح مصر تبدت مفيدة لليهود. بغض المصريين لليهود كان له على الأقل عامل ديني؛ ألم يقل موسى لفرعون: «يكره المصريون ما نضحي به من أجل يهوا، إلهنا؛ إذاً ما ضحينا تحت أعينهم بما يكرهون، ألا ينحون إلى

رجمنا؟». (سفر الخروج VIII، 22).

أيّاً كانت القيمة التاريخية التي يتعيّن أن يكون عليها كتاب إستير Esther[1] فإن الأسباب التي توجب على آمان Aman[2] أن يسوقها ليقنع آسويروس كيما يقوم بالقضاء على اليهود كانت قد أظهرت بوضوح خصوصيتهم المرفوضة: «يوجد شتت، في قلب الشعوب العديدة التي تقطن ممتلكتك، شعب غير قابلٍ للتمثل... فقوانينه لا تشبه أياً من قوانين الآخرين». (إستير، III، 8). والقرار الذي حصل عليه «آمان» من الملك يضم مآخذ أصيلة لا يمكن التسامح معها وجرائم: «حجة مَنْ ثمّ يصرّح بثبات بأنه شعب فريد من نوعه، وُجد في كل المواضع، في نزاع مع البشرية بكاملها، والتي يختلف عنها بنظام شرائعه الغريبة جداً، انه معادٍ لمصالحنا، ويقوم بأسوأ الأعمال، حتى إنه يهدد الإستقرار في مملكتنا. (إستير اليوناني، III، 5).

ومع ذلك، حينما قرر إسدراس Esdras ونهيمي Nhémie

(1) أحد كتب العهد القديم، وربما قد كُتب في أوائل القرن الثاني ق.م. ليواسي اليهود المهددين من قبل آنتيوخوس إبيفان Antiochos Epiphane ـ المترجم.

(2) محظي ووزير آسويروس Assuérus ملك الفرس ـ 1855 ق.م. ـ كان يريد القضاء على اليهود، لكن الملكة إستير ـ وهي بحسب الإنجيل يهودية فائقة الجمال تزوجت من ملك الفرس آسويروس ـ حصلت على العفو عن اليهود ـ المترجم.

منع زواج اليهود من الأجانب، لم يكن الأمر متأتياً بنيّة من التفوق العرقي، لكن من الرغبة في مقاومة إمكانات التمثّل التي قد تُعرِّض وحدة الإيمان التوحيدي ونقاءه للخطر.

ب ـ **اليونان**: تشهد الحرب التي شنّها، في القرن الثاني ق.م. آنتيوخوس الرابع إيبفان على خصوصية عدائية ومتعمدة، ضد الديانة اليهودية: لقد تعلق الأمر بالضبط بإبادةٍ، باسم الحضارة الهيللينية التي كان لها في ذلك العصر كل سمات العداء للسامية. سوف يتهم فلافيوس جوزيف Flavius Josèphe مملكة «السلوفيين ـ Séleucide[1] بأنها كانت «غير عادلة عن قصد وزنديقة وملحدة». فيما سيقول «تاسيت ـ Tacite» في هذا الموضوع: «لقد بذل الملك آنتيوخوس جهده لينزع عن اليهود خرافاتهم ويقدم لهم التقاليد اليونانية، لكن الحرب ضد «البارتيين Les Parthes حالت دونه ودون تطوير هذا الشعب الشنيع...». وقد ظهرت أيام حكم آنتيوخوس السابع سيديتيس Sidétès، حوالى عام 130 ق.م. إتهامات بكونهم أعداء الجنس البشري، ومصابين بالجذام، ولا جدوى منهم... بلا ريب نجد في مؤلف آبيون Apion

(1) مملكة عائلة هيللنية حكمت في آسيا من حوالى 305 إلى 44 ق.م. وكان قد أسسها هوسيليبوس الأول. تركزت قوتها بشكل خاص في مملكة سوريا، حيث كانت الهيللنية متطورة للغاية، وقد دمّرها بوجيوس ـ المترجم.

مجموعة كاملة من المآخذ والشكاوى المسوقة ضد اليهود التي ستشكل «الكليشيهات» اللازمات لمعاداة السامية بشكل معتدل. . . : اليهود هم مصريون فاسدون، برص، عمي وعرج؛ خصوصيتهم الدينية تشكل خطراً سياسياً دائماً، إنهم يعبدون رأس حمار، ويمارسون القتل الطقسي («كان اليهود يمسكون بمسافر يوناني يسمنونه خلال عام كامل. . . ثم يضحون بجسده وفقاً لطقوسهم، فيتذوقون أحشاءه ويقسمون وهم يضحون باليوناني بالبقاء أعداءً لليونانيين»)، وظهرت تُرّهة المؤامرة اليهودية العالمية، إلخ.

ج ـ الرومان: لم يكن وضع اليهود في ظل الأمبراطورية الرومانية وضعَ شعبٍ مضطهدٍ. لا ريب في أن الرأي العام الشعبي كان في ظروف معيّنة معادياً لليهود بسببٍ من خصوصيتهم الدينية التي تعزلهم عن الغير، وبسبب أن عدداً من الكتاب كانوا، واقعة لا شك فيها، الصدى لثرثرات يعوزها التسامح. غير أنّ، إذا ما شكّل سقوط القدس في عام 70 والقضاء على الإنتفاضة بقيادة «بار كوشبا Bar Kochha في عام 135 وقائع مؤلمة ووحشية نزلت باليهود بوجه خاص فهما ليسا منوطين بردة فعل عنصري باشره الرومان إذْ هما في صلب مشروع عسكري لهؤلاء.

وسط المبدعين اللاتينيين الوثنيين، هناك شيشرون الذي تحدث عن اليهود بدون لطف في أثناء دفاعه عن فلاكوس

Flaccus، لكنّ هذا خصوصاً كانت براعة محام. في حين أن تاسيت، المعادي للسامية والمقتنع بما يفعلّ، والذي كان يجمع ويراكم كل الهذر المؤذي: أصل إسرائيل الجذامي، نقد يوم السبت، عبادة رأس الحمار، شعب شنيع، الخ.. كتب بالإيجاز المعروف به أحد أشد الأحكام المنمّقة المعادية للسامية: «وأضاف كل ما هو مقدس لدينا مدنس في نظرهم، وبالمقابل، كل ما هو مسموح به لديهم شنيع لنا»، وأضاف في الحوليات، معلقاً على نفي أربعة آلاف رقيق معتق مُرَجّسين بالخرافات المصرية واليهودية إلى سردينيا، أنه «إذا ما تسبب المُناخ الموبوء بموتهم، فهذه خسارة بسيطة». أتُرى قال إيكمان Eichmann أفضل؟

إلا أنّ كل هذا يقودنا إلى طرح السؤال عن العلاقة بين معاداة السامية والعنصرية. نحن ميالون بالكفاية إلى التفكير، بفعل غياب الأسباب العرقية، الاقتصادية أو الاجتماعية الظاهرة، فإن معاداة السامية في ذلك الزمان تُفسر جوهرياً بالعامل الديني. كتب الحاخام الكبير كابلان Kaplan بصدد مقاومة أنتيوخوس ابيفان: «بهذا الرفض الذي واجه به اليهود وحدهم الوثنية اليونانية، وضعوا أنفسهم بشكل أو بآخر خارج العالم المتمدن في زمانهم. فقد اعتبروا كائنات على حدة، وسنذ ذلك التاريخ وجهت إليهم التهمة بأنهم «أعداء الجنس البشري»... العالم مدين لموقف اليهود في ذلك الزمن بالإتجاه الروحي الذي أخذت به البشرية فيما بعد. فبعد

إنقضاء مائة وسبعة وستين عاماً على بدء ذلك الاضطهاد وُلد المسيح في فلسطين».

2 ـ مفهوم معاداة السامية

إن تاريخ معاداة السامية لم يتوقف، مهما كان الأمر، وللأسف مع ظهور المسيحية! متى وبدءاً من أي وقت أخذت معاداة السامية الشكل العنصري؟ هذا هو السؤال المطروح والذي يفترض، قبل عرض الوقائع، مقاربة لمفهوم معاداة السامية.

الواقع أن العبارة بحد ذاتها رديئة جداً مليئة بالالتباسات. لكننا في الحقيقة سنستعمل الكلمة التي ظهرت في ألمانيا حوالى عام 1880 حاملةً معنى لقي قبولاً في الاستعمال الشامل والخاص بالكره لليهود.

مع ذلك يجب التمييز بين معاداة السامية ومعاداة اليهودية أو، كما يقال أحياناً، معاداة الحاخامية. هاتان العبارتان الأخيرتان تعبران بشكل أساسي عن كره على أساس ديني: بناءً عليه رأينا لاهوتيين مسيحيين يأخذون، من أجل نقدها، بالميول اليهودية لهذا الخط من الروحية أو تلك الهرطقة. العقلانية أيضاً، ولئن أخذت بالتأليهية[1] فإنها تؤدي إلى عداء عنيف لليهودية. لا يمكن تفسير معاداة ڤولتير للسامية

(1) مذهب التأليه الذي يقر بوجود الله وينكر الوحي والعقائد ـ المترجم.

بدون أسّ شديد الأهمية في معاداة اليهودية، والنائب اليهودي ناكيه Naquet الذي أعلن أمام البرلمان في أيار 1895 : «إذا ما تلخصت معاداة السامية فقط بمحاكمة ورفض العقيدة، الأفكار الرئيسية للديانة اليهودية، فإني أعلن لكم بصراحة شديدة أنني أنا نفسي سأكون معادياً للسامية»، يُبرز بهذه الكلمة جيداً التميز الذي بالإمكان جعله بين الفكرتين.

بناءً عليه ما هي معاداة السامية؟ حاول، برنار لازار Bernard Lazare في مؤلفه الشهير: «معاداة السامية، تاريخها وأسبابها» (1894)، الإجابة عن السؤال: «بما أن أعداء اليهود ينتمون إلى مختلف الأعراق. . . يجب بناءً عليه، أن تكون الأسباب العامة لمعاداة السامية موجودة دائماً في إسرائيل بحد ذاتها وليس عند من يحاربونها». هذه الملاحظة غير الموفقة في صياغتها (لكونها ستستَغل بشكل فظيع خلال الاحتلال النازي لفرنسا بالطبع)، كان لها الفضل (أو عدمه؟) في ربط معاداة السامية بشعب واحد أوحد، هو شعب إسرائيل: وهذا يعني أننا تجاه واقع يعود إلى خصوصية ووحدانية إسرائيل، واقع يجد في تفسيره، من يقبلون بالاصطفاء الديني أو النداء الباطني الروحي لإسرائيل الذين ربما يكونون أكثر إرتياحاً تلقاء الذين يرفضون وجود مثل هذه العناصر. لكنّ كلمات برنار لازار بالرغم من كل ذلك هي أقرب ما تكون إلى التحقيق منها إلى التحديد.

إذا ما كانت معاداة السامية المعاصرة تتلبس في معظم

الأحيان بالشكل العنصري، ففي أي وقت ظهرت هذه الخاصية؟ هذه أخذت أهمية بفعل الإبادة الجماعية التي قام بها النازيون بأن جعلت كبار المؤرخين يتساءلون عن تكوّن وتاريخ معاداة السامية: فقد خص كل من جول إيزاك Jules Issac، م. م. بلومنكرانز M.M.Blumenkranz، إيكور Ikor، بولياكوف Poliakov، ولوفسكي Lovsky إلى جانب آخرين، هذه المسائل وبالعديد من الآراء الهامة. لا ترد هنا عندنا مسألة تخصيص دراسة شاملة عن معاداة السامية بعينها (خصص كتابان من هذه السلسلة لها)(*) لكنْ فقط من أجل التحقق، عما إذا كانت ظواهر معاداة السامية قد شكلت نوعاً من عنصرية أم لم تشكله في حُقَب ما قبل عصر النهضة.

3 ـ الوقائع

أ ـ معاداة السامية التمييزية: إن المعارضات الأولى بين اليهود والمسيحيين هي بالطبع من أصل ديني: كل دين أراد الحفاظ على نقاوة الإيمان عند المخلصين له ويحذر من التبشير المتحمس من قبل الآخر. هذا هو في العمق معاداة اليهودية التي يبدو أن م. لوفسكي قد نعتها في حينه معاداة السامية التمييزية ليشير إلى موقف مسيحيي القرون الأولى.

(*) Histoire de l'antisémitisme, n° 2039, Sociologie de l'antisémitisme, n° 2194.

فالقرار ـ المتوائم مع أفكار بول Paul وبارنابه Barnabé ـ المتخذ من قبل «المجمع الديني في القدس» من أجل التخلي عن فرض الختان وبعض الأنظمة القانونية اليهودية على الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية كان قرار خيانة في نظر السلطات اليهودية، فقد أخذت تناضل بحمية منقطعة النظير ضد الهرطقة المسيحية جوهرياً بتصلبٍ لاهوتي: وألقت الحرم على المؤمنين الأوائل الذين كانوا من اليهود المسيحيين في فلسطين. غدا المسيحيون في أعين اليهود الأورتوذكس بمثابة مرتدين والمسيحية مثل ارتداد واسع على اليهودية. هذا الكره لم يكن بالحتم ذو معنى وحيد، إذ في «مقابل اللعنات الحاخامية لعنات معاداة السامية المسيحية» (م. سيمون .(M.Simon

بالتأكيد، لم تكن الكنيسة لتقبل بأن تعامل كمذهب يهودي هرطوقي، بل اعتبرت نفسها على العكس الإنجاز والتفتح لإسرائيل: إسرائيل بالروح. لم تتطور معاداة اليهودية المسيحية إلى معاداة السامية إلا ببطء كبير. اليهود هم، بحسب أوغستان Augustin شهود، ويجب الحفاظ عليهم: على طقس اللطم. هذه النظرية للشعب الشاهد، شكّلت البناء اللاهوتي، وغدت جزءاً من «إثبات عقائد النصرانية» التي، لم تكن تكتفي ببقاء الشعب اليهودي، لكن أحياناً تتطلبه: اليهود هم الشاهد في تشتتهم وبليّتهم. هو ذا جان كريزوستوم Jean Chrysostome الذي ظهرت ـ ومن بعيد ـ اللعنة اليهودية عنده

في أقصى درجاتها، والتهمة بجرم قاتل المسيح المصاغة بوضوح تفسر بمقتضاه العذاب الدائم الذي يعاني منه اليهود.

كل شيء كان يساعد على هذا الانتقال بدءاً من معاداة اليهودية إلى معاداة السامية. من بين الأسباب الخاصة هنا، تجدر الإشارة إلى الغيظ الذي كان يعانيه المسيحيون أمام رفض اليهود للإنجيل والنجاح القليل للتبشير المسيحي... من ثمَّ إلى فضح الإصرار على الخطأ والتعامي، لم يعد يوجد سوى خطوة (هذا ما سيكون لاحقاً الكنيس المعصوب العينين).

لكن، يجب أن نذكر، وهذا جوهري في ما يختص بمقصدنا، أنه، في كل هذا التعدّي (وليس الأمر بالتأكيد للبرهان على مظاهره الملموسة أو البشعة) لا نجد أقل أثر للإزدراء أو المعارضة العنصرية. فسمة الدونية العرقية هيئتها المُعْضِلة والمحتومة. غير ممكن أن يكون مثل هذا هنا: الأمل بالتحول يجعل الأمر وكأنه لم يحصل شيء البتة والمستقبل يحمل كل الإمكانيات. ثم من بدء عصر الفرنك Les Francs[1] سيكتب الشاعر ڤنانس فورتونا Venance Fortunat: «الزيت المقدس سيعمّد جزة النعاج... وماء العمادة سيذهب بالرائحة الكريهة لليهودية». كما التحول يجعل اليهود مسيحيين كالآخرين، أو بالأصح مسيحيين على

(1) قدامى الفرنسيين ـ المترجم.

غرار المبشرين ومريدي المسيح، يهود بالولادة، لأن ليس عليهم رفض أي شيء من ماضيهم لكن مجرد الإضافة اليه. وليس في هذا شيء من العنصرية.

ب ـ معاداة السامية بالاستقرار ـ وهي تقع كرونولوجياً في عصر الفرنك[1] والقرون الوسطى. لم تعد الدولة معادية للكنيسة باعتناق كل من كونستانتان وكلوفيس المسيحية، ولم يعد بالإمكان تلافي الاختلاط بين الضرورات الزمنية والروحية. إحدى النتائج الأولى للتراجع الكلي للوثنية ومن ثم زوالها تركُ المسيحيين وجهاً لوجه مع اليهود. فمنذ أن أصبح كل الوثنيين مسيحيين، لم يعودوا يشكلون جنساً ثالثاً، وأغرتهم سهولة الأخذ بتعليلات الوثنيين ضد اليهود الذين أصبح عداؤهم للمسيحيين بمثابة «كرهٌ للجنس البشري» وغدت معاداة السامية قريبة من التأسيس على الاسباب الاجتماعية والاقتصادية أو السياسية، بمعنى أنها أخذت تفقد شكلها البدائي كمعاداة دينية.

أ ـ ومع ذلك فالاهتمامات الدينية تُفسّر دائماً الأخذ بعدد معين من المعايير أو الممارسات:

1 ـ منع الزواج بين المسيحية واليهودي ثم بين اليهودية والمسيحي لم يكن مستلهم من العنصرية، لكن من الخوف

(1) القبائل الجرمانية التي غزت بلاد الغال في القرن الخامس ـ المترجم.

من الغزوات الروحية على حساب الكنيسة، هذا معناه خوفاً من ارتداد الزوج المسيحي؛

2 ـ انتعشت وانتشرت تهمة قتل المسيح. مسألة الشعب المهدّم للدين كوّنت جزءاً من الإرث الشعبي المشترك في المسيحية: لزِمَ الآن تأمل روحي مرهف كي يقبل ويركز على أن الشعب اليهودي لم يصلب المسيح، بل خطايا كل البشر هي ألتي صلبته؛

3 ـ كان على الطقس[1] أيضاً أن يعكس عداءً مركزاً تجاه اليهود: من بين عظات احتفالات يوم الجمعة المقدّس، واحدة تتلى لأجل اليهود (هذا الأمر كان جيداً)، لكن نصها تضمن «النعمل من أجل اليهود الغدرة» ويشير إلى «الغدر اليهودي» (لم يكن هذا بالأمر الحسن). كذلك، بحسب معلومات آديمار دي شابان Adémar de Chabannes، كانت توجد عادة في تولوز في كل عيد فصح، أن يُصفع يهودي. وأدت هذه الممارسة إلى «الكلفنة» Colaphisation حوالى عام 1000، كونها مورست بقوة أدت إلى انبجاس دماغ وعيني اليهودي المسكين من رأسه ووقعت على الأرض، إذا ما صدقنا كاتب الحوليات! . . .

4 ـ نتيجة الأمر إن النميمة بالقتل الطقسي لم تنتعش في معاداة السامية التمييزية؛ المسيحيون الذين حيكت ضدهم

(1) شعائر العبادة في الديانة المسيحية ـ المترجم.

هذه التهمة من قبل الوثنيين لم يريدوا بدورهم الأخذ بها ضد اليهود، لأنهم كانوا في موضع جيد للغاية بحيث يعرفون بأنفسهم بطلانها. لم تُسق هذه التهمة الخطرة ضد اليهود للمرة الأولى إلا في القرن الثاني عشر: بابوات أمثال إينوسان الرابع وغريغوار الخامس بذلوا وسعهم وطاقتهم عبثاً للقضاء على هذه الخرافة المشؤومة التي تعاود الظهور بثبات ورباطة جأش شاهدة على عنف عظيم.

ب ـ **الأسباب الاقتصادية**. لكن وضع الجماعات اليهودية ازداد سوءاً منذ بداية الحملات الصليبية: ليسوا مسيحيين، وسط المسيحية. بالإمكان استعمال اليهود للقيام ببعض الوظائف الممنوعة على المسيحيين؛ في أحد المعايير المعيّنة «قولب الروحي الاقتصادي». إلى هذا يجب إضافة نوع من الاستعداد لنشاطات التجارة والمبادلة لدى الشعوب المشتتة داخل أمم أخرى.

في مضيق العادات المثبّتة، كان ممنوعاً على اليهود امتلاك المباني: ولكن بالمقابل كان يُسمح لهم بأن يكونوا ملاّك كروم وأراضٍ أو بيوت، حيث كانت تشكل التهديدات الفجائية بالطرد، وما ينتج عنها بالفعل، الفرص السانحة لمصادرة ثرواتهم. أنّى الغرابة، مذ ذاك، في ألاّ يمارس اليهود على الغالب إلا المهن التي يمكن الفرار منها بسهولة حاملين ما يقتنون من أشياء ثَمينة: فرّاؤون، صاغة، صيارفة، دائنون ومُداينون، إلخ...

بالنسبة إلى المسألة الواسعة للربَا اليهودي الذي حظي كذلك بنفوذ، من المناسب التذكير بأن المقصود بالربا في القرون الوسطى: كان الدفع من قبل المقترض لمختلف أنواع الفائدة مهما كانت ضئيلة نسبتها. وبالتالي فاليهودي المرابي يبدو بمثابة منتوج المجتمع القروسطي، فيكتب آشيل لوشير Achille Luchaire: «فن الضغط على اليهود أصبح مؤسسةً قائمة بحد ذاتها، ومورداً منتظماً للملكية»، بناءً عليه أدت «معاداة السامية بالاستقرار» إلى ظهور أسباب لم تكن مطلقاً دينية وغدت أسباباً لمعاداة السامية تبنّاها فيما بعد العنصريون بفرح فثبّتوها بجزم. تكفي الإشارة على الأقل إلى استصلاح صحراء النقب من قبل المزارعين الإسرائيليين كيما يقتنع البعض بأن اليهود بعد كل ذلك قادرون على القيام بنشاطات أخرى غير التي أراد العنصريون أن يلصقوها بهم.

ج - **إشارات الإذلال أو التمييز**: ثمة اثنتان هما في منتهى الشهرة أو الفاعلية: الشريحة المستديرة والغيتو.

1 - قوام الشريحة المستديرة يتمثّل في التعليق الإجباري بأن يعلّق اليهود شارة صفراء، كان قد فرضها عليهم المجمع الديني الرابع في لاتران Latran عام 1215 راغباً في التمييز المطلق بين المسيحيين واليهود. وقد اخذ بهذا التدبير بمرونة كبيرة وبالكثير من التنوع. لكن هنا لم تكن الأسباب القروسطية بعْدُ عنصرية، لأن المسلمين والبرص والعاهرات، جميعهم كانوا يعلقون شارات مختلفة؛ وجاء تدبير التعليق

أيضاً لتجنب الاختلاط أو التنبّه للمعاشرة التي تعتبر مفسدة للإيمان.

2 ـ الغيتو الذي سيعمم بعد عصر النهضة تأتى في البدء عن نفس الرغبة في الفصل فسمح أيضاً للجماعة اليهودية بتماسك العلاقات الاجتماعية والروحية في ما بين أعضائها.

بوسعنا حقاً أن نأسف للأخذ بمثل هذه التدابير التي تظهر لنا مذلّة وتميزية بل بشعة وضعها الحكام، غير أنها لن تقترب إلى ما سيأخذ به النازيون؛ الفكر العنصري لم يكن بعدُ قد وُجد. عظة القديس ڤانسان فرييه Saint Vincent Ferrier نفسه في آخر القرن الرابع عشر تشكل مثلاً جيداً في الموضوع: «أنتم يا مَنْ في كل جهة، هل عندكم قبول في أي وقت أن يتحول يهودي إلى المسيحية؟ يوجد كثير من المسيحيين مجانين بالكفاية ليس عندهم قبول. حَقَّ أن يعانقوهم، أن يحيطوهم بمعالم التشريف وأن يحبّوهم؛ على العكس، إزدروهم لأنهم كانوا يهوداً. لكنّ الإفتراض بألاّ يحصل هذا لأنّ يسوع المسيح قد كان يهودياً، ومريم العذراء قد كانت يهودية قبل أن تصبح مسيحية. فتحقيرهم هي خطيئة كبرى». كتب م. لوفسكي: «هذا كان من قبيل عدم التسامح، وليس من العنصرية على الاطلاق، مشيراً الى الطابع الخارجي[1] لتشريع يهود «مكلمبورغ Mecklembourg الذي

(1) الزواج الخارجي ـ هنا من غير اليهودي أو اليهودية ـ المترجم.

كان يشجع على الزيجات المختلطة من أجل تنصير الأطفال، وكان بمقدور الكاتب نفسه القول: «يوجد فرق أكبر بين مكلمبورغي 1813 ومكلمبورغي 1933 مما بين رسيسويند Receswind وبلوشير Blücher».

ج ـ مفهوم جديد: نقاوة الدم ـ هنا في إسبانيا، في أواسط القرن الخامس عشر، أخذت المسألة اليهودية أول صبغة عنصرية. لم يكن هذا شأناً من العنصرية المحض، الذي وإنْ لم يكن الكلام فيه عن إمارات: صحيح، أنه لم يكن يجري الكلام بعدُ عن العرق اليهودي، لكنّ الفرق بين اليهود والآخرين لم يعد مجرد فرقاً دينياً، إذ إن الماء المقدس أيضاً لم يعد كافياً «لإزالة الرائحة الكريهة لليهودية». العدد الوفير من اليهود الذين تحولوا (تنصروا) تبيّن أنهم لم يقطعوا نهائياً مع إيمانهم القديم: الكثيرون من بينهم، عُمِّدوا بشكل مغلوط، أو أنهم تنصروا بالقوة، أو أنهم اعتنقوا العقيدة الكاثوليكية بدافع المنفعة ولاعتلاء مناصب رفيعة؛ هؤلاء مثل أولئك استمروا يمارسون الشعائر اليهودية سراً. الشعب، الذي كان يغار منهم ويحتقرهم من جراء هذا الإنتماء المزدوج كان يكرههم أكثر من اليهود الحقيقيين وأسماهم مارانوس Marranes[1]. كانت الفكرة المسيطرة تقوم على وجوب

---

(1) بمعنى المهتدين ـ المترجم.

اعتبار مسيحيين جداً ليس فقط المتنصرين، لكنْ أيضاً كل أحفادهم. بالمقابل، «المسيحيون القدامى» فقط يمكنهم البرهان على «نقاوة الدم»، أي البرهان على أنّه لا وجود بين أجدادهم من تنصّر. هذا كان من ثمّ لسواد الشعب، وسيلة لتشكيل أرستقراطية بثمن بخس، بحسب ما يمكن وجوده جيداً عند كثير من كبار الإسبانيين. وجود بعض قطرات من دم يهودي، وفي هذا الخصوص، في القرن السابع عشر، سيوجد نوع من شك شامل الذي سيتحول إلى فكرة ثابتة.

في عام 1449 في طليطلة وضع على أثر حدوث فتنة بفعل الضرورات الضرائبية الكبيرة للملكية، أول تشريع لنقاوة الدم: فقد اعتبر المتنصرين غير جديرين بأن يحتلوا «المقامات الرفيعة الخاصة أو العامة» في مدينة طليطلة وكل الأراضي التابعة لسلطاتها القضائية. إذا ما كان كل ذلك سيؤدي إلى تحريم مبدئي سيطال كل يهود إسبانيا في عام 1492، فقد بقي من ثمّ بالكفاية من «المارانوس» بحيث ظهر تشريع لنقاوة الدم في طليطلة وعلى الدوام، في عام 1547، يكرّس رسمياً من جديد «ضرورة نقاوة الدم». هذه الفكرة المدعومة بحرارة من قبل رئيس الأساقفة سيليسيو Silicio، محاربة بتفوق وحميّة من قبل الفرنسيسكاني الفرنسي هنري مورروي Henri Mauroy، أفسحت المجال لتكاثر المناظرات التي سجلها م. سيكروف M.Sicroff. فالعداء لـ «المارانوس»

أخذ شكل البديل لمعاداة السامية بإدخال عامل العنصرية الجديد. وفي ذلك العصر فإن الشك المتولد عن إمكان قلب غير حقيقي أنتج مفهوماً عنصرياً للمسألة اليهودية: وكان في ذلك إشارة إلى تغيرات مقبلة.

الفصل الثاني

البوادر

بنهاية القرون الوسطى، يشهد العالم تحولاً ممّا كانت أسبابه مركّبة وفي أنساق متنوعة: في المستوى الأول تأتي الاكتشافات الجغرافية التي ندرك مقدار ما سوف تثير من تساؤلات: هذه المخلوقات المكتشفة في ما وراء البحار وهي في حالة التوقف عن التطور، هل هي بشرية أو لا؟ هل تنتمي إلى الجنس البشري؟ لئن جاء الجواب بنعم، أفلا تكون، من ضمن هذا الجنس نفسه، ممثلةً لأعراق دونية مع كل ما يحتمله ذلك؟ هو ذا شكل غير متوقع لتنوع غير مشكوك فيه تمَّ إلى ذلك الحد.

كذلك حصلت تحولات في أوروبا حيث انهارت مسيحية القرون الوسطى وزالت: فقد أعقب وحدة مزدوجة دينية ولغوية تنوعات محلية وتناقضات وطنية.

توسع الأرض، تمايزات اللغات، والعداوات الوطنية أوصلت البشر إلى أن يتعارضوا، يتحاكموا يُصنفوا: لماذا

يَستثني العقل الحيوانَ المُنعم عليه بالعقل من التبويبات التي تتراكم والفرضيات التي توضع حول أصله ومصيره؟ في المرآة المكسورة حيث ينعكس الجنس البشري، سيرفض البعض معاينة الوحدة تحت التنوعات الظاهرية: وسيبقى هذا الأخير وحده ويُمجد من أجل الاشارة بتفوق هذا العرق أو ذاك.

I ـ العالم الجديد

1 ـ الهنود

بعد فتوحات لسنا معنيين بالحديث هنا عن تاريخها، أقرّ البابا ألكسندر السادس في البراءة البابوية «إنتر سيتيرا»[1] Inter Cetera أخْذ المستعمرات الإسبانية في العالم الجديد. وبِدءاً من ذلك الإقرار نُظِم جهاز كامل تحت مراقبة «بيت العقود الهندية في إشبيلية»، شرّع «توزيع الهنود بمثابة غنيمة مميزة للفتح». ضد ذلك التشريع ارتفع وعظ راعد من قبل الدومينيكي فري أنطونيو مونتيزينوس Fray Antonio Montesinos في كنيسة «سان دومينغ» ـ Saint Domingue، يوم الأحد الأخير من مقدمات عيد ميلاد عام 1511: «أنتم جميعكم في حالة الخطيئة المميتة بسبب وحشيتكم تجاه العرق الهندي البريء. أليس الهنود من البشر؟». أدت ردات الفعل

(1) هي تعني الوثيقة البابوية ـ المترجم.

المباشرة على هذا الوعظ الذي أحدث الكثير من الضجيج آنذاك أدت إلى أن يُصار إلى تلطيف لذلك التشريع. أحد المستمعين لونتيزينوس، بارتولوميه دي لاس كازاس Bartolomé de Las Casas، مستعمر قديم على وشك أن يصبح قساً، سيغدو البطل المدافع عن كرامة الهنود عن حقوقهم. وجدير بهذه المناسبة الإشارة إلى إثنتين من أشهر المشادات التي حصلت حول موقف المستعمرين الإسبان وحول المصير الذي كانوا يُعدّونه للسكان الأصليين. الأولى، في عام 1519، وضعت وجهاً لوجه، أمام شارل كان Charles Quint، الأمبراطور الجديد، لاس كازاس، وكيڤيدو Quevedo أسقف دارين Darien (كولومبيا). لم يتردد هذا الأخير عن الإعلان بأن «الهنود هم مخلوقات دونية، أرقاء بالطبيعة»، مستعيداً بذلك التمييز الذي قال به أرسطو في «السياسة». لم يكن جواب لاس كازاس بأقل حزماً إذ قال: «إن ديانتنا موجهة إلى كل أمم العالم... ولا تُحْرِمُ واحدة منها بدعوى الرقّ بالطبيعة». تدخلت البابوية نفسها وبقوة؛ فقد أعلن البابا بولس الثالث في البراءة البابوية «سوبليميس ديوس Sublimis Deus»[1] في عام 1537، أن الهنود هم «حقيقة من البشر» وقادرون على تلقي الإيمان، بالرغم ممن يتجرأون على التأكيد بوجوب استرقاقهم، كونهم مجرد

(1) بمعنى: الله تعالى ـ المترجم.

حيوانات. وقد أشار لاس كازاس إلى صفة بأنهم أحفاد آدم واجداً في ذلك الضمان في أنهم: «قابلون، لما يمتلكون من عقل، للتحول إلى الديانة الكاثوليكية المقدسة».

نشر، «سيبولفيدا Sepulveda» وهو راهب قانوني من قرطبة ومترجم أرسطو في روما، مؤلفاً مكرساً لاستعمال القوة ضد السكان الأميركيين الأصليين، حيث دعّم شرعية الحروب التي قام بها «كورتيس Cortés» ومنافسوه، آخذاً بالبراهين الرئيسة القائمة على كون الهنود برابرةً **وأرقاءً بالطبيعة** وكونهم يقدمون الضحايا البشرية. في آب 1550 وفي ڤلادوليد **Valladolid** اجتمع مجلس من أربعة عشر عالم لاهوتي لسماع البراهين المقدمة من قبل سيبولڤيدا ضد لاس كازاس. وإذا ما أجّلت المشاداة لتستأنف في الربيع المقبل، لم تنته البتة بشكل رسمي، لكنها انتهت مع ذلك بانتصار الأطروحات اللاعنصرية المدعّمة من قبل لاس كازاس: لقد توقفت حروب الفتح، ورُفضت حجج البربرية وعبادة الأوثان، ووصل نفوذ حامي الهنود حتى إلى المحاضرات التي كان يقدمها دومنغو دي سوتو **Domingo de Soto** في جامعة سالامنك ـ **Salamanque** في السنوات اللاحقة: «إن فرض الشيء بقوة السلاح يجعل الإيمان بشعاً... من غير المسموح على الإطلاق القيام بالشر كيما ينتج عنه الخير».

في السنوات الأخيرة من حياة لاس كازاس الذي توفي في سن الثانية والتسعين، تشهد على استمرار النشاط نفسه من

قبل رجل كان قد كتب: «لا يوجد أمة في العالم، كائنةً ما تكون بربرية ووحشية أو فاسدة التقاليد، ليس بمقدورها أن تصبح ذات يوم أمة متمدنة، يتصرف أفرادها بشكل إنساني ومطابق للعقل». وقد استشهد بهذه الجملة هانك Hanke الذي كتب: «ستعيش هذه الجملة على مر القرون وستكون أحد أهم عطاءات إسبانيا للإنسانية»، ويُقارنها ببعض مقاطع الإعلان الذي وضعته منظمة الأونيسكو في عام 1950.

المثير للدهشة أن لاس كازاس كان قد طلب في شبابه إرسال الرقيق الأسود إلى أميركا. نحن نعرف هذه الحقيقة من لاس كازاس نفسه الذي يعلن في كتاب «تاريخ الهنود» Historia de Las Indias أنه كان أول من طلب إذن استيراد الرقيق الأسود. مضيفاً: «فهمتُ آنذاك أن ما هو ظالم تجاه الهنود هو أيضاً ظالم تجاه زنوج إفريقيا». ويضيف إنه لم يكن يعرف «بأية طريقة ظالمة استرق البرتغاليون هؤلاء الزنوج» ومعترفاً «بأنه لم يكن متأكداً مطلقاً من أن الجهل بهذا الموضوع الذي عاش فيه سيشكل له عذراً أمام محكمة الله». ومن ثمّ فليس لاس كازاس الذي اخترع استرقاق الزنوج: البرتغاليون مارسوه من قبل، بما فيهم السود في إفريقيا، لكنّ من جراء الإكتشافات الكبرى التي سوف تظهر وتطور تجارة العبيد.

2 ـ تجارة العبيد

تجارة العبيد المرتبطة أشد الإرتباط بالملاحة ما بين أوروبا، إفريقيا وأميركا، قد بلغت ذروتها في القرن الثامن عشر.

لا يسعنا في هذا الكتاب التفكير في عرض التقنية والإلغاء بالنسبة للموضوع، لكننا نريد فقط محاولة الإجابة عن السؤالين التاليين:

1 ـ ما هو عدد الزنوج الذين نُقلوا من قارة إلى أخرى؟ بالتأكيد أن كل إجابة رقمية بهذا الصدد هي في منتهى الصعوبة وبحسب «مزاج الكُتّاب وميولهم العرقية أو السياسية، فإن الرقم العالمي يتراوح ما بين 3 و50 مليون». التقديرات المقدمة من قبل م. ديشم M. Deschamps في مؤلفه الشهير «تاريخ تجارة العبيد» تسمح لنا بالتفكير في أنه منذ عام 1450 فإن مجموع التجارة العالمية هنا يتضمن على الأقل 14 مليوناً من الزنوج و«بدون شك قَلَّ ما يكون 20 مليون منهم يتوزعون على عشرين قرن من الزمان، القرنان الأخيران حصتهما بأكثر من النصف».

2 ـ لماذا الزنوج، وفعلياً الزنوج وحدهم قدّموا وبالتقريب كل اليد العاملة المسترقة؟ سيجيب العنصريون بصوت واحد، لأنهم يكوّنون عرقاً دونياً. يقدم م. ديشم بعض الأفكار: منذ أن أخذ الوثنيون البيض (السلاف) يعتنقون المسيحية، جرى

البحث عن أرقاء غيرهم فوُجِدوا في إفريقيا السوداء؛ ارتفع عدد الأرقاء مع تأهيل وتحسين أميركا وكان الزنوج المعتادون على المُناخ الإستوائي يعملون أفضل من غيرهم في المزارع الغربية: وُجد الاسترقاق قبلاً في إفريقيا على أثر استلاب غنائم الحرب وهذه «عادةٌ صارت مع الوقت مبالغاً فيها».

في الحقيقة، يوجد دليل لم يقدمه أحد دون شك بسبب بساطته، أنه يذكّرنا قليلاً ببيضة كريستوف كولومبوس: فلماذا الزنوج؟ بسبب من اللون! كان العبد في روما في حدود الامكان وعلى مرور الزمن، وثنياً: من ثمّ كان شخصاً مختلفاً. في وسط البيض (بغض النظر عن الوسم الشخصي للسيد) لون الجلد سيكون قرينة الإسترقاق؛ سيكون أكثر صعوبة على الزنجي أن يحظى فراره ببعض النجاح. أول مظهر عنصري هو لون الجلد الذي سيتخذ سريعاً معنىً عنصرياً. عند البيض، بالمعنى الخالص للكلمة العبد الأسود يشكّل بقعة. . . ، ما عدا ذلك، هو حقاً إنسان؟ أم هو حيوان متطور؟ اليهودي، هو بعينه، يصبح مسيحياً بالعمادة؛ و«يهوديته» هي صفة روحية بمقدوره تركها، لكن الأسود ليس بمقدوره أن يُغيّر جلده.

لكم استفاد العالم القديم من التجارة القذرة التي وصفنا؟ هذا ما كان يعنيه و. سومبارت W.Sombart حينما كتب «لقد أصبحنا أغنياء لأن أعراقاً بكاملها وشعوباً بكاملها ماتت من

أجلنا: إنه من أجلنا أُفرغت قارات بأسرها من سكانها».

II ـ نظرية الطبقات

يقظة الضمير الآخذة في الحدة للفروقات الوطنية كانت تثير إلى أقصى حد الخصوصيات: أدّت، بدءاً من القرن السادس عشر، إلى التركيز على القيم الخاصة بكل مجموعة، وغالباً إلى الاعلان عن كونها متفوقة على كل ما يمكن أن يجمع.

بناءً عليه قويت اللغات الوطنية وتركزت على حساب اللغة اللاتينية التي، غدت مع الوقت أكثر وأكثر فقط، لغة طقسية أو لغة ندوة الإنسانيين. فالايطاليون كانوا يميلون إلى اعتبار الفرنسيين بمثابة برابرة، في حين كان الفرنسيون يحتفلون بأصالة وكرامة لغتهم الوطنية. وكانت تستعمل جرمانية «تاسيت» ما قبل نهر الراين للاحتفال بالمزايا الألمانية. في حين كتب كريستوف شورف Christophe Scheurf في كتاب «أمجاد ألمانيا» Libellus de laudibus Germaniae: «إني لا أرى شيئاً مشتركاً بيننا وبين الفرنسيين: قوتنا، لغتنا، نهجنا في خوض الحرب، كل شيء هو مختلف. نحن نمتلك أخيراً تعلقاً آخر يختلف عنهم بوعودنا واحتراماً آخر لليقين بالعقيدة» «ما مِن إشتراك، كلٌ في اختلاف»، كان التمجيد لكل ما يُفرّق، الإنكار أو السكوت المطبق على كان كل ما يمكن أن يجمع.

عمل فرانسوا هوتمان François Hotman جاهداً للبرهان على أن الحكم المطلق هو مناقض للتقاليد الوطنية. وقد وضع من أجل ذلك كتاب «بلاد الغال الفرنسية» La Gaule française: الغاليون كانوا أخوة الجرمانيين، غير أن الفرق بينهم وبين هؤلاء الأخيرين أنهم أصيبوا بنحس تحمل الاحتلال الروماني. لم يكن الأمر يتعلق بعدُ هنا بنظرية الأعراق لكنه شكّل الأنباء عنها: بقيت الأطروحة الإثنية متروكة - تحت نظرية الطبقات. في أواخر القرن السابع عشر، برز خصم في وجه أنصار وَحْدَة العرق بين الغاليين و«الفرنك» Les Francs، كان رجلاً خارج المألوف هو «ليبنيز» Leibniz، الذي خصص مقالة لهذا الموضوع: «في أصل الفرنسيين»؛ فيها بيّن أن الطريقة نهضت من الرغبة وليس من المحاكمة والبرهان.

كل ذلك سيجد له شكلاً، إن لم يكن نهائياً، فعلى الأقل معمقاً ومركزاً في مخطوطة ستنشر بعد وفاة كاتبها هنري دي بولانڤيليه Henri de Boulainvilliers: «تاريخ حكومة فرنسا القديمة». شكّل احتلال بلاد الغال من قبل «الفرنك»، بحسب رأيه، الأساس الحقيقي للدولة: «أصبح الغاليون الرعية المرؤوسة، فيما أصبح الفرنسيون الأسياد والأمراء الإقطاعيين. منذ الاحتلال أصبح الفرنسيون الأصليون النبلاء الحقيقيين والوحيدين القادرين على ذلك». وقد غدا الدوق سان سيمون في منتهى السعادة بحيث قدم حججاً مثيلة مع

التركيز على أن الأقنان تحدروا من الغاليين ـ الرومان. ومتمماً هوتمان فإن بولنفيليه دافع بدوره عن نظرية الطبقات: النبلاء كانوا يطالبون بالسلطة استناداً إلى الحق بالولادة ولكونهم أحفاد الفاتحين الجرمان.

ما كان لمثل هذه الأطروحة المتراصّة على هذا النحو ألاّ تجد من لا يحاربها وبعنف: وقد حدث ذلك من قبل القس دوبو ـ Dubos الذي ردَّ في كتابه «التاريخ النقدي لقيام الملكية الفرنسية في بلاد الغال» (1734) آخذاً بالضبط الموقف النقيض لـ بولنفيليه: كانت الملكية والبورجوازية بمثابة الانبعاث من المجتمع الغالو ـ روماني القديم؛ والفرنك كانوا قد قدموا إلى بلاد الغال نظير حلفاء للرومان، وفرنسا هي مدينة بعظمتها إلى الجذور الرومانية التي لا تزال حية فيها.

أنَّ الواحدة والأخرى من هذه الأطروحات كانتا بالضبط في منتهى المبالغة، هو ما سيشير إليه فكر متوازن كفكر مونتسكيو الذي لم يعدم التدقيق كرجل حكيم أو عاقل يكتب: «السيد الكونت دي بولنفيليه وضع نظاماً يشكل بمجموعه مكيدة ضد الطبقة الثالثة، والسيد القس دوبو وضع نظاماً يشكل مجموعة مكيدة ضد طبقة النبلاء».

لم يَمنع هذا التقويم قَطّ كتاباً لاحقين من الوقوف بحرارة خلف أحد زعيمي القضية مبالغين أيضاً في أطروحتهم: سييس Sieyès، على سبيل المثال، في كراسه الشهير «ما هي الطبقة الثالثة»؟ ظهر كأنه المكمّل لـ دوبو؛ إذ أكّد بوضوح

إعجابه بالعدالة الرومانية القديمة. بالمقابل، القس مابلي L'abbé Mably في «ملاحظاته حول تاريخ فرنسا» Observation sur l'Histoire de France اعتمد، منذ عام 1765، أطروحات بولنفيليه.... مستبدلاً الطبقة الثالثة عن طبقة النبلاء.

مشايعةُ الألمان بلغت ذروتها مع الآنسة دي ليزارديير Mlle de Lézardière (نظرية القوانين السياسية والملكية الفرنسية 1790) التي غيرت وجه الصراع بين الفرنك والرومان إلى حرب لا هوادةَ فيها وحيثُ الحرية الجرمانية كانت في قبضة الحكم الاستبدادي الروماني: القضاء على هذا الأخير يضمن للحرية أن تنتصر.

«مونتلوزيه Montlosier، هو نفسه، سيستمر في الاتجاه نفسه الذي عليه بولنفيليه، في حين أن أوغستان تييري Augustin Thierry، في القرن التاسع عشر سيستعيد التناقض ثانيةً بين العنصرين، الذين أحدهما نبيل وهو جرماني، الآخر بروليتاري وهو غالي - روماني. عنوان الكتيب المنشور في عام 1839 من قبل العالم الطبيعي وليم إدواردز William Edwards استطاع البروز في هذا الموضوع بليغاً بنوع غريب «في السمات الفيزيولوجية للأعراق البشرية متفحصة في علاقتها بالتاريخ» Des caractères physiologiques des races humaines, considérées dans leur rapports avec l'histoire.

أليس مناسباً في هذا الخط وضعُ ڤيكتور كورتيه Victor

Courtet الذي سُلط الضوء مؤخراً على أهمّيته والذي ظهر على كل وجه كما المنظّر الأول للأعراق والسبّاق على غوبينو Gobineau؟ لقد قدم في عام 1837 مؤلفاً نظير برنامج يحمل عنوان: «علم السياسة القائم على علم الإنسان، أو دراسة الأعراق البشرية في إطار علاقاتها الفلسفية والتاريخية والاجتماعية» La science politique fondée sur la science de l'homme, une étude des races humaines sous le rapport philosophique, historique et social.

إن نظرية الطبقات التي عملت على المطابقة بين الطبقات والأحوال الإثنية المختلفة، التي على التوالي مُجِّدت أو حُقِّرت بحسب المؤلفين، العنصر الجرماني أو العنصر الروماني، درّبت الأذهان على تقييد الأفراد بحسب أعراقهم. المذاهب العنصرية كانت بالتالي تغرف بتوسع من هذا الإرث المشترك لمؤلفين، الذين لجهلهم بالأنتروبولوجيا، قدموا في مناظراتهم على المستويين السياسي والوطني نوعاً من الأساس التاريخي للمنظور الذي شكل الرسم الخداع أو السراب للعنصرية.

الفصل الثالث

المذاهب العنصرية

I ـ آرثور دي غوبينو Arthur de Gobineau

1 ـ من كان غوبينو؟

ولد الكونت جوزيف آرثور دي غوبينو في 14 تموز 1816، في ڤيسي ـ داڤري. كان ينتمي إلى صغار نبلاء الريف. لم تنس عائلته مطلقاً جذورها النورمندية البعيدة، وهذا سيسمح فيما بعد لـ غوبينو أن يعتبر الڤيكنغ Vickings أجداده، ولو أن صحة ذلك أمر قابل للإعتراض، لا سيما عندما يكتب تاريخ أوتار جارل Histoire d'Ottar Jarl القرصان النورڤيجي. الذي يبدو كأنه الدعامة الأخيرة.

تعهّدت أمه تربيته، وحافظت ثقافته الأولى المنعزلة على المثالية الخيالية في ذاته، لكنها أبعدته عن الواقع الملموس.

عندما بلغ سن الرابعة عشرة أقامت أمه في بيين Bienne، حيث تابع هذه المرة في الثانوية دراسة مقدمة باللغة الألمانية،

التي أطلعته على اللغات القديمة من لاتينية ويونانية، وخصوصاً على اللغات الشرقية حيث بدا أن الصعوبات في الكتابة وأيضاً في القواعد مما جعله يتعلق بها وتشكل في تفكيره وفي فؤاده الحب المزدوج لجرمانيا والشرق.

وصل إلى باريس في وقت وُصف بأنه يشكل النهضة الشرقية وتابع محاضرات كل من سيلفستر دي ساسي Sylvestre de Sacy، بورنوف Burnouf، كاترمير Quatremère.

اللقاء الذي حصل له بـ «توكفيل Tocqueville» (من دون شك عند آري سشيفر Ary Scheffer) قد قرر مصيره وجعله يخرج من السطحية وسمح له بالوقت الكافي وأيضاً بالاستمتاع كيما يكتب مؤلفات لن ننتقي منها سوى «البحث حول عدم مساواة الأعراق البشرية». أنجز في البدء بعض الأبحاث لتوكفيل. عُرَى العلاقات المعقودة بين الرجلين، سوف تزداد وثوقاً؛ في هذه المناسبة عندما أصبح توكفيل وزيراً للشؤون الخارجية في عام 1849، عيّن «غوبينو» رئيساً لمكتب وزارته. ومهما كانت قصيرة مدة ممارسة الوزير لمهامه، فقد سمحت لـ غوبينو الآن بأن يضع قدمه في البيت، وبدءاً من تشرين الثاني من السنة نفسها عيّن الجنرال دي هوتبول de Hautpoul، الذي كان يقوم بتأمين أعمال الشؤون الخارجية بالوكالة، بعد استقالة توكفيل، عين غوبينو سكرتيراً أولاً لسفارة فرنسا في برن Berne. فأصبح بالتالي بشكل نهائي في

السلك الخارجي. صدر «البحث حول عدم مساواة الأعراق البشرية» في أربعة أجزاء في عامي 1853 و1855. في غضون ذلك مثّل غوبينو فرنسا في هانوفر وفرانكفورت؛ واستمر في السلك الدبلوماسي حتى عام 1877. عاش بعدها في روما: في أثناء عودته إليها في إحدى المرات في تشرين الأول/ أكتوبر 1882 توفي فجأة وحيداً في تورينو.

2 ـ الرؤية الغوبينية للمسائل

حالما دخل الساحة، تساءل غوبينو عن نهاية الحضارات: لماذا وكيف تموت؟ بعد أن رفض كل الحلول المقترحة قبلاً (تأثير المؤسسات والأديان والمُناخات) وبعد أن برهن على أنها لا يمكن أن تشكل بمفردها تفسيراً مرضياً، قدّم مفتاح النظام الجديد الذي يقترحه والذي يقوم بشكل أساسي على العرق.

إذا ما تبدّى العرق بمثابة العامل الحقيقي للتغيّرات في المجتمعات، فلا بد من الإشارة إلى أن الأمر يتعلق بعرق غير متحرك ومجمّد في مقاومة صلبة للمؤثرات الخارجية. تؤول الحضارات إلى الزوال بسبب انحطاط ميزاتها الوراثية، ويعود هذا الانحطاط إلى اختلاط الأعراق؛ لكن الحضارات لا تتقدم إلا إذا غزت أمة ما أمة أخرى؛ فإذن، لا يبدو من باب المبالغة القول أن اختلاف الأعراق يشكل عاملاً حضارياً وحده قد سمح للإنسان بالخروج من البربرية.

كذلك نجد تناقضاً أساسياً، أدركه غوبينو كل الإدراك، بالنسبة له، كما اللغة بالنسبة لِـ إزوب Esope، إن اختلاط الأعراق هو في الوقت نفسه أفضل الأشياء وأسوأها: فالجنس البشري محكوم بـ «قانون مزدوج الفعل للجذب والدفع... والذي يشكّل شقه الأول في الوقت نفسه مؤشر الاستعداد للتحضّر لدى عرق ما كما يشكّل عاملاً لانحطاطه».

قانون الدفع، الذي نفكر على الفور بأنه سيشكل الأساس لمذهب عنصري، هو على العكس في نظر غوبينو الذي يدينه: فالبدائيون الذين يرفضون لن يتحضروا مطلقاً: «وهناك جزء من البشرية هو في الوقت نفسه عاجز عن أن يتحضر وبشكل مطلق، حتى للدرجة الأولى، لكونه غير قادر على تخطي الكره الطبيعي للتهجين[1]، الذي يشعر به الإنسان كما الحيوان».

إن قانون الدفع يمكن تخطيه بسهولة أكثر لوجود قانون الجذب الذي هو وقف على الشعوب القوية، «فالشعب هو من النخبة بشكل واضح ولديه ميل واضح للاختلاط بدم آخر» يشكل العنصر الذي سيؤسس بالاتحاد بعرق دوني مغلوب على أمره «عرقاً جديداً ينم عن مزايا خاصة متأتية عن الاختلاط بحد ذاته وغير معروفة لدى العائلتين المولدتين لها». لكن مع الأسف الشديد فالتوقف محال على مثل هذا

(1) تزاوج الأجناس ـ المترجم.

المنحدر. ومن التهجين والاختلاط نصل إلى الانحطاط: «الكبار قد ذلوا في الوقت نفسه؛ وهذه إساءة لا يعوضها ولا يصلحها شيء»، إذ كان يفترض أن يبقى الاختلاط حذراً وغير ذي شأن، وأن يكون مأخوذاً به بمقادير تجانسية[1].

يبقى أن نفسر بأي منهج فكري وسيكولوجي توصل غوبينو إلى بناء هذا التناقض. حُسن نيته ليس موضع شك؛ فقد أوضح هو نفسه بما فيه الكفاية في توطئة الطبعة الثانية للبحث التي صدرت بعد وفاته (1884) الطابع الاحتمالي والذاتي لأطروحته. «لقد كانت أطروحتي بما تحمل من الضعف والقوة، الصحة ونسبة الغلط، شبيهة بكل تنبؤات الإنسان». هذا يستبعد كل ادعاء «علمي» على اعتبار أن التنبؤ لا يعود للعقل. وأكثر من ذلك قوله «هذا الكتاب... هو التعبير عن الغرائز التي حملت مع ولادتي» و«لم أعتبر أن بمقدوري أن أعرف نفسي من دون أن أعرف كيف كان الوسط الذي عشت فيه والذي كان يجذبني جزئياً بالود الشيق والحنان ويقرزني جزئياً ويملؤني بالحقد والكراهية والرعب». هذه الصيغ تبدو أيضاً مقبولة تلقاء التي قدمها في عام 1877 في مشروع التوطئة حيث كتب إن نظرية العرق «هي النتيجة الطبيعية لكرهي ونفوري من الديمقراطية». فالواقع أنه ليس

(1) بالنسبة للطب التجانسي وهو علاج الداء بالداء ولكن بجرعات ضئيلة جداً ـ المترجم.

بمقدوره أن يعترف أفضل مما فعل بالنسبة لذاتية نظريته: المأساة الداخلية للإنسان، التي غذّت أعظم الصرخات من أوغسطين إلى پاسكال، حلّها غوبينو بالتنازع العرقي.

3 ـ الأعراق البشرية المتنوعة

أ ـ الأعراق الثلاثة الرئيسة: ليس بدون ارتيابات، تبنّى غوبينو التقسيم السائد، في زمانه، القائم على ثلاثة فضائل كبيرة: السوداء، الصفراء والبيضاء. بالرغم من أنه استهان بتأثير الوسط، يبدو أنه استشعر أن اللون هو ميزة ثانوية من الممكن أن تتأتى بالضبط عن الحرارة أو درجة التشميس. ويشكل السود النوع «الأكثر تواضعاً» والذي «يشغل أسفل السلم». وهذا النوع «لن يخرج مطلقاً من دائرة التفكير الضيق». أما الصفر، فبخلاف السود، ليس لديهم سوى القليل من الرغبات وميلهم في كل شيء يتجه إلى الوضاعة. وتتلخص ميزة النوع الأصفر بحب الشيء النافع، واحترام القاعدة، بكلمة، بالعقل العملي. هذا في حين أن خصائص العرق الأبيض هي أقل دقة، لكن ذلك يعود بلا ريب إلى «كون الشيء الجميل ليس من السهل اختصاره»... والمحرك المميز لتصرفه هو الشرف. وينتهي كاتب البحث إلى تمجيد حقيقي للعرق الأبيض: «العرق الأبيض برهن منذ البدء على قوة ذكاء ويقظة، فسيطر على الأعراق الأخرى، الأكثر منه عدداً بما لا يقاس، وذلك ليس بفضل السلطة

الحاصلة له على هؤلاء الخصوم المهانين، لكونه لم يحصل أي تماس بهم، لكن قبلاً من كل أعالي الاستعداد التمديني على الفراغ». هي ذي إذن العناصر الثلاثة التي تشكل الأساس والمستعدة للإلتقاء على سطح الكوة الأرضية عند بدء الأزمنة التاريخية: انتشر السود في اتجاه الجنوب (إفريقيا وآسيا الجنوبية) وغمر الصفر الصين وأوروبا، والبيض المقيمون في الهندوكوش - l'Hindou Kouch[1] انتشروا في كل أنحاء العالم، وسوف تُركِّزُ وإلى الأبد أولى الاختلاطات التي ستحصل سمات الخزانات البشرية التي ستخرج منها الأمم المعاصرة.

ب ـ الاختلاطات الأولى للبيض والسود وانعكاساتها على الحضارة. يميز غوبينو بين البشر البيض المقيمين على الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى ثلاث فصائل: الحاميون، الساميون، الجافتيون (التي يُبقي لها أسماءها الإنجيلية من عائلة نوح).

1 ـ حكم الشعوب. ما شاهدناه عند أبناء حام وسام يُعدّ بحق مختصراً مأسوياً لما سيكون عليه تاريخ الغرب المثير للشفقة. فأبناء حام البيض، عند ظهورهم في وسط السود، نُظر إليهم بمثابة الآلهة ولم يعترضوا على ذلك (إن الإنسان

(1) وهو جبل في آسية الوسطى بين «البانير» Le Panir و«الكوين لوين» Le Kowen - Louen ـ المترجم.

هو إله الإنسان». ولسوف يشكل ذلك المقدمة لمغامرة الإسبان الفاتحين لأميركا)؛ فأول نظام للحكم كان ثيوقراطياً[1] لأن الأبيض كان إلهاً. لكنّ قانون الجذب ذي «الوجه المزدوج الكئيب والمبتسم» قام بعمله التهجيني. فلم يكن بمقدور الموجة السامية أن تُعتبر إلهية على اعتبار أنها وجدت أمامها رعايا من «الدم الأبيض»: فتحول الحكم من كونه كهنوتياً وملكياً إلى أرستقراطي وجمهوري.

2 ـ الفن. الينبوع الذي انبثق منه الفن هو غريب عن الغرائز التمدينية. فهو مختبئ في دم السود. قوة تأثير الفنون على الجماهير ذات علاقة مباشرة بكمية «الدم الأسود» عند هذه الجماهير. أليس في ذلك ما يُدهش!؟ غوبينو نفسه هو على إدراك كامل للتأثير غير المتوقع لاستنتاجه الصارم، فنراه لا يتمكن من الامتناع عن تسطير الآتي: «سيقولون أني وضعت تاجاً جميلاً على رأس العبد الدميم...». «لكنّ العبقرية الفنية لم تبرز إلا على أثر اقتران البيض بالزنوج»: فالمبدأ الموجود في «الدم الأسود» ليس بمقدوره أن يوضح فكرته بحد ذاته، فهو بحاجة إلى الاتحاد مع الأبيض.

ج ـ الأريان Les Arians. هم أبناء جافت، هذا معناه الفرع الثالث من البشر البيض الذين قدموا من آسية الوسطى،

(1) بمعنى حكومة يشرف عليها رجال الدين، تدّعي الحكم باسم الله ـ المترجم.

غوبينو الذي يريد أن يتحاشى كل لَبْس مع الآريين Les Ariens التابعين لهرطقة آريوس، سيكتب آريان Arians وليس آريون Aryens؛ ما دمنا نحن ندرس نظريته، فسوف نستعمل مصطلحه. طبيعة العرق تؤدي هنا إلى مدح تقريظي. غوبينو اعتبر: «من حيث التكامل الطبيعي، كان هذا العرق هو أجمل عرق سمعنا به.. فهو عرق البشر الذين ألهم شكلهم الطبيعي نحاتي «أبولون بيتيان» Apollon Pythien، و«جوبيتر أثينا» Jupiter d'Athènes و«ڤينوس دي ميلو» Vénus de Milo، فشكلوا أجمل جنس بشري جعل منظره الفرح يعم الكواكب والأرض». مثل هذه الاستعدادات الجسدية تفسر الأريان أنهم متفوقون بالعقل و«عليهم أن يصرفوا كمية لا تنضب من الحيوية والطاقة». وقد نُظمت السلطة السياسية لمجتمع أناس من الأحرار ومتساوين ووجدت نظامها الأمثل في الهند، حيث الإنقياد لرغبة الحفاظ على السلطة المطلقة بيد العرق الأبيض، جعلتهم يتخيلون دولة التراتبية الاجتماعية وفقاً لدرجة مستوى الذكاء: الطبقات المغلقة Les castes.

لذلك، وبحسب كلمات «غوبينو» نفسها «فقد وجدت المسألة حلّها المثالي...»، لكن النظام استُعمل متأخراً للغاية وستُنزل به البوذية الضربة القاضية.

د ـ **الصفر**. أعطى غوبينو لأفراده صورة طبيعية مبتكرة إلى حد ما ومخادعة: «على الوجه العريض المسطح أنف وفم وعينان صغيرتان»، «بالطبع فالمخترع لم يكن يريد أن يعمل

سوى الرسم الأولي»؛ وكانوا يتميزون «بالشعر القليل عند معظم شعوبهم، مع ذلك نرى كثرة الشعر بمثابة ردة فعل وبشكل كثيف عند البعض منهم ومتدلياً حتى الظهر».

4 ـ البانوراما الغوبينية للتاريخ الغربي

أ ـ اليونان. قبيلة الأريان من الهيللين **Hellènes** استقرت في شمالي شبه جزيرة البلقان وأخضعت السكان الأصليين من أصل أتني مختلف: سكان صفر وعناصر «ميلانية» **mélaniens** أو سامية. هؤلاء الأبطال للأزمنة ما قبل الهوميرية هم الذين هيأوا عظمة مقدونيا.

لكن الأثر الضّار للدم الأسود على الميزات السياسية للبيض ما لبث أن ظهر: «فمع أو من دون الطغيان كان حكم المدن اليونانية ممقوتاً، ومخجلاً. . .، وذلك لأن جذوره الأولى، المؤكدة ولو أنها غير ظاهرة، كانت تغرز عميقاً المفهوم المهيمن المكوّن عند الأعراق السوداء عن السلطة». في الجنوب بكامله حصل الاتجاه نحو تطور الديمقراطية: «الدم الأسود كان السائد في الأكواخ، حتى إنه وصل أيضاً إلى القصور».

إذا ما فكرنا في أن الديمقراطيات الحديثة، تعود، بشكل من الأشكال، إلى الأمثلة الهيللينية؛ نوافق على أهمية الملاحظة التالية: «لا بد من العقل المعوّج للمتحذلقين وسوء نية المنظرين المتصنعين» لتوصية مجتمعاتنا التشبه بالفوضى الأثينية.

ب ـ «السلت» Les Celtes. السكان الأوائل لأوروبا الشمالية كانوا من الصفر الذين قدموا من أميركا عبر الآلسكا. سيكون «السلت» بمثابة الطمي الأبيض الذي غمر هذه الطبقة الصفراء. ما قبل التاريخ كان الإنسان الأبيض ملوناً بالأصفر في الشمال كما بالأسود في الجنوب؛ هذا الخليط الأبيض ـ الأصفر شكل الأساس الإثني لأوروبا الغربية؛ فالتوق الى العبودية لدى الصفر بقي أثره لمدة طويلة: هذا ما أنتج الشعب الحاضر من الأرياف الفرنسية أسفل البرتاني bas-Bretons بقامتهم القصيرة الرُبعة، رأسهم الكبير، وجههم المربع والجدّي القسمات، عيونهم التي هي غالباً ما مغولية[1] بحيث تتعذر نسبتهم إلى الدم الفنلندي بكمية كبيرة». فيما بعد سوف يُعمّد بروكا - Broca باسم «السلت» متوسطي السمرة في المنخفض الأوسط من فرنسا والمناطق الألبية. هكذا أصبحنا نرى في الريف الفرنسي عرقاً شديد الخصوصية، وبالأخص المونغولي، ومغلقاً في ابتعاده عن الحضارة المعاصرة المتحدرة من أصل جرماني...

ج ـ روما. إذا ما احتوت روما في أصولها مختلف الشعوب البيضاء، إنما المختلطة كلها بالشعب الأصفر، فإن روما السامية هي نتيجة للإختلاطات الناجمة عن الفتح. أبعد من هذا، هذه الإمبراطورية الرومانية، موضوع اشمئزازٍ شديد

(1) عيون مائلة الأطراف كعيون المغول أو الجنس الأصفر ـ المترجم.

من قبل غوبينو: «هذه الأمة التي لم تكن أمة، هذا الركام من الشعوب المُتسلط عليها بإسم مشترك، ولكن ليس بعرق مشترك». والصورة المتخيلة التي أعطاها لروماني الإمبراطورية قلما كانت موضع رضىً: «إنسان متوسط القامة، ضعيف التكوين، برونزي السحنة، في عروقه يجري قليل من دم كل الأعراق ممكنة التصور... وقح، دابٍ، جاهل، لص، فاسد، مستعد لبيع شقيقته وإبنته وزوجته، بلاده وسيده، ومُنٌّ عليه بخوفٍ بلا نظير من الفقر، من الألم، من التعب ومن الموت... لنقلْ كل شيء ولا نبالغ بشيء، كأنّ كل ما عرفته روما الإمبراطورية من صلاح خرج من أرومة جرمانية».

د ـ «الأريان الجرمان» Les Arians germains. كانوا يسكنون، في القرن السابع ق.م.، تحت إسم «الآس» Ases أو «الأريان» ـ Arians، دولة في روسيا الوسطى عاصمتها «أسغارد» ـ Asgard وانتشروا في أوروبا، فتوحات «الهون Les Huns» في القرن الخامس ب.م. دفعت بهم حتى الأطلسي.

لكن على ممرّ الأيام، مضت الحضارة الرومانية «تستخدم سيطرتها كما الأمواج تستخدم الصخور» وأخيراً هي التي عاشت. إذا ما كانت الأمم الجرمانية تذوب رويداً رويداً في بقايا مختلف الأعراق التي عَمَرت أوروبا، فإن كل آثار الدم الأرياني لم تَزل مع ذلك.

هـ ـ **الأمم الحديثة**. كل التحركات الهامة للمجتمعات الحديثة حصلت لها تعود في تفكيرها الى الامتصاص البطيء للجرمان في الطبقات الإتنية الموجودة قبلاً وبقياس فَرَضي دونهم.

فإلى جانب إسكندنافيا ممن سكانها لم يكونوا أكثرية عددية بالكفاية، لكنْ ممن ملوكها نظير غوستاف أدولف وشارل الثاني عشر الجديرين بالأريانية، هناك روسيا القوية المُميّزة لكن باحتقار. فقط وجودُ الأجانبِ كثير العدد في عناصرها القيادية أجبرها على الظهور على المسرح الأوروبي وتقوم بدور هام. والذين يرون في روسيا بلداً جديداً، عذرياً، ويحمل قوة المستقبل ليسوا سوى «عقول مخدوعة»؛ حقيقة الشيء «السلاف هم السلالات الأكثر قدماً، الأكثر تلفاً، الأكثر اختلاطاً، الأكثر انحطاطاً التي وجدت». علينا ألاّ نقسو في التهكم على الفهم المحدد للنبوءات الغوبينية... قياساً بنبوءة توكفيل.

أما في إيطاليا بالحقيقة، الدم اللومبردي Le sang Lambard كان له حقٌ في الإذعان للحضارة الرومانية الصاعدة؛ عصر النهضة وجب عليه مرة أخرى أن يكون الشاهد على نفوذ روما الضار على العقول، وسوف تظهر فرنسا بمثابة المكمِّل الحزين لهذا العمل التسطيحي والتفكيكي: «فقد وجّهت فرنسا ونفّذت كرئيس ابتلاع المراكز العليا وسط ارتباك واسع لكل العناصر الإتنية التي تمكّنت منها

دونما مقاومة لتفكّكِها وعدم تجانُسِها». والغريب أن ألمانيا لم تُعامَل بأفضل من فرنسا. فهي أيضاً انحطت كثيراً وإذا «ما استعاد الألماني المعاصر من اللاتينية عبارة «أكتب» - schreiben، فذلك لأن الألمان ليسوا من أصل جرماني». هذا زعمٌ يفترض أن يُغفر لِـ غوبينو كيما يستقبل بترحاب ما وراء نهر الراين.

إنكلترا، على العكس فهي ان لم تحتفظ بالميزات الاريانية صافية، فعلى الأقل حافظت عليها إلى حد ما. «الأنكلوسكسون هم من بين الشعوب التي خُرجت من شبه الجزيرة الإسكندنافية، الشعب الوحيد الذي احتفظ بشيء ظاهر من الأصل الأرياني». ذلك لا يمنع من أنّ موجات الحضارة الرومانية ضربت شواطئ بريطانيا العظمى.

5 ـ محاكمة «البحث»

أ ـ الخلاصة. التمعن في البحث يُظهره أقرب إلى الخيال الشعري منه إلى الدراسة العلمية. نشر غوبينو على سطح الكرة الأرضية، الأسود في الجنوب، والأصفر في الشمال، وافترض أنّ كل حضارة متأتية عن فيض في الدم الأبيض، أنّ خليط يؤدي إما إلى المزيد من الأهواء، والفوضى والاستبداد، وإما إلى مُغالاة في العقل، بدون تصور ولمجرد إحراز منافع مادية. في الأزمنة التاريخية ما من شعب لم يحمل في عروقه قليلاً من هذه العناصر وبنسب مختلفة؛

وبالتالي يصبح تفسير التاريخ بمنتهى البساطة: غلبة اللون البرونزي مع الأهواء الحادة في الجنوب، وغلبة العقل الهادئ والبشرة الفاتحة في الشمال، والتي تعود للمكان المشترك. البحث لِـ غوبينو قد كان مناسبة للتأكيد على خياراته السياسية وكراهيته السياسية، لاعتقاده أنه يفعل ذلك بشكل علمي.

تنعكس سيكولوجية غوبينو في الجو العام لمؤلفه: هو مدموغ بتشاؤم أكيد وصريح، تؤكده عدة أسطر في آخر البحث ذات صور وشكل في غاية الجمال الأدبي، وتنذر، بحسب غوبينو، بمصير البشرية. يقول: «القطعان البشرية الرازحة تحت وطأة الخمود الكئيب، سوف تعيش منذ تلك اللحظة مخدّرة في عدم أهليتها كالجواميس المجترة في برك الماء الراكدة في مستنقعات «بونتان» Pontin.... التنبؤ المحزن، ليس هو الموت، إنما اليقين بالوصول إليه منحطين؛ وربما حتى هذا العار المخصص لأحفادنا يمكن أن يتركنا من دون إحساس، لو لم نشعر وبرعب خفي بأيدي القدر الكاسرة التي حطت علينا». هذه النظرة لمتذوقٍ للجمال مكشوف البصيرة أو بائس، تُفسّر ما عند غوبينو من إحساس بأنّ اللعبة انتهت، وأنها خاسرة وأنّ ما من قوة في هذا العالم بمقدورها أن تعيد إلى الأعراق الصفاء والأبهة الأصليين التي كانت تتمتع بها. هذا العجز عن التغيّر أيّاً كان شكله، هو «عجز سعيد»، وستكون لنا فرصة للتدقيق فيه.

ب ـ مصير البحث. لم يلفت العمل لحظة صدوره انتباه المؤرخين. النقد الأول الجدير بالذكر هنا هو نقد العالم الطبيعي كاترفاج Quatrefages الذي عاب على غوبينو، وبحق، آراءه الأنتروبولوجية المبسطة. غير أن التقويم المميز والجدير بالاهتمام صدر عن توكفيل الذي مهد طريق السلك الدبلوماسي لـ غوبينو، والذي احتفظ له بصداقته. توكفيل كان يجهد نفسه كيما يخضع مفهومه للعالم للضرورات الدينية أو الفلسفية، والحالة هذه المسيحية والأنسيّة[1]. أما مذهب غوبينو فليس بمسيحي. في هذا الصدد كتب له: «حاولت المسيحية أن تجعل كل البشر أخوة ومتساوين، مذهبك يجعل منهم على الأكثر أبناء عم وأبوهم المشترك لا يوجد إلا في السماء»، ونبهه قائلاً: «ألا ترى أنّ كل الشرور الناجمة عن عدم المساواة تخرج بالطبع من مذهبك: الغرور، العنف، كره الشبيه، الطغيان والسفاهة بمنحه نفس أشكالها؟». بعد مرور ثلاث سنوات ينبّه غوبينو مجدداً أن عمله يأتي في اتجاه لم يكن يبتغيه أو يتوقعه: «من قبل من؟ من قبل مالكي العبيد ولأجل فرض العبودية الأبدية المستندة إلى الفرق المطلق للعرق... في العالم، معظم المسيحيين ليس بمقدورهم إبداء

(1) بمعنى الإنسانية النزعة ـ مذهب يعنى بتنمية مناقب الإنسان وفكره بما يمثله من ثقافة أدبية وعلمية، مذهب مفكري النهضة الأوروبية في إحياء الآداب القديمة ـ المترجم.

أدنى قبول لمذهبك». أجاب غوبينو على كل ذلك، بأن ضميره مرتاح، وأنه لم يقم بسوى البحث عن الحقيقة وإذا لم تكن هذه الأخيرة أخلاقية، فهذا أمر لا يعنيه.

واستنتج توكفيل أن حظ البحث هو في العودة إلى فرنسا عن طريق الخارج وخصوصاً عن طريق ألمانيا. بالتأكيد حظي مؤلّف غوبينو بشهرة كبيرة ما وراء نهر الراين خلال السنوات 1870 ـ 1914. الأهمية المعطاة للجرمان وعبادة الأرياني Arian الأشقر كان لا بد أن تحظى بالإعجاب، لكن علينا ألاّ نخفي واحدة من أفظع تناقضات الأريانية. فقد رأينا غوبينو يفيد من كل مناسبة ليرفض تماثل أبطاله الجرمان مع الألمان المعاصرين؛ بالرغم من ذلك، فعمله المبسّط مع أمْثَلَةٍ[1] مضافة إلى الأسطورة التوتونية سيسهم بجزء كبير في نمو غرور «العرق» في ألمانيا. كما الصداقة التي عقدها غوبينو في فرانكفورت مع الكونت «بروكيش اوستن Prokesch Osten، رئيس «البوندستاغ» وحظوة ريتشارد فاغنر Richard Wagner الذي طلب منه مقالاً لمجلة «Bayreuther Blätter» وجعل نفسه المتحمّس لدعوته، وتكوين «Golineau Vereinigung» «جمعية غوبينو» من قبل «لودويغ شيمان» في عام 1894، كل ذلك يشهد على حضوره. شيمان، الذي أصبح، بصورة من الصور، المنفذ لوصيته الأدبية، لسوف

(1) جعلُ الشيء مثالياً ـ المترجم.

يكتب في عام 1917 «غوبينو دير إيت أونسر» واضعاً إياه إلى جانب هيندنبرغ Hindenburg .

ج ـ مكانة غوبينو. هل توجب علينا أن نرى في «غوبينو» أول عنصري صاحب مذهب؟ لقد كان أول من صاغ في كتاب، يحمل عنواناً مثيراً، فرضيات وطرح تعميمات ما كان لها إلا تشجيع الكُتّاب اللاحقين. لذا اعتبر بوجه عام أحد آباء العنصرية. كتبت السيدة بونزود Buenzod أنه كان بحق «أحد رجالات، بل يمكن القول إنه الرجل الوحيد الذي ساهم بفعالية، في الأزمنة المعاصرة، بالاشادة «الشعور بالعرق». غير أننا لا يجوز لنا أن نحمّله المسؤولية المباشرة عن التطبيق العملي الوحشي للنظرية. من دون شك أنه كان سيندهش هو الذي يعتبر اليهود «شعب حر، شعب قوي، شعب ذكي وكان. . . قدّم للعالم بالتقريب جهابذة بقدْر عدد الباعة»، وهو الذي يؤمن بضرورة الاختلاط العرقي الذي يعتبره بمثابة الخميرة التي لا غنى عنها للحضارة. حُكم هـ. س. شمبرلين H.S.Chamberlain في هذا الموضوع بليغٌ بالكفاية، هو يذكر أن من بين خصومه الخاصين «الأوفر دقة مَنْ أخذوا بوسيلة مبتكرة لنزع الثقة عن أفكاري: ماثلوها بأفكار الكونت دي غوبينو». هي النتيجة شمبرلين ليس كالكاتب الفرنسي ساخطاً وخادعاً: عنده تفاؤل شديد، من ناحيته أيضاً، سيكون بالمستطاع إنقاذ كل شيء وذو مغزى أن يكون العيب الكبير الذي خطته ريشته هو أن «النظرية الغوبينية تستبعد كل تطبيق

عملي للأفكار حول العرق».

لا يبقى إلا القول إذا بُولغ أحياناً بنفوذ غوبينو، وإذا، مثلما يشير بمهارة م. غولمييه M. Gaulmier، وقعت الأفكار الغوبينية تحت عكس المعنى، هذا يُفهمنا أن هذه الأفكار كيف ما كانت عليه يجب الإنطلاق: «الأساتذة ورجال الدولة الألمان. . . جعلوا من غوبينو شخصاً هاماً في تاريخ الفكر في القرن التاسع عشر. في تاريخ الأفكار غالباً ما لا يحصل التعلق بصحتها بقدر ما يحصل بتأثيرها». فالنحس الذي حصل بعد وفاة غوبينو تمثّل في أن كتاباً غريباً، شكوكياً وسلبياً أمكن اعتباره مؤلفاً علمياً مليئاً بالوعود؛ إذ استعمل بالضبط منطلقاً لكل الذين أتوا بعده.

II ـ هـ. س. شامبرلين

1 ـ المؤلف

ما من علاقة قرابة بين هوستون ستيوارت شمبرلين Houston Stewart Chamberlain ورجال الدولة الإنكليز الثلاثة الذين يحملون الإسم نفسه. هو حفيد دبلوماسي إنكليزي وابن أميرال، ولد في بورتسموث Portsmouth في عام 1855. أمضى طفولته في فرسايل، ودرس في ثانوية شلتنهام Cheltenham ثم في المدارس السويسرية، وأخيراً في جامعة ألمانية. فرنسا، إنكلترا وألمانيا هي البلدان الثلاثة التي

سمحت له برحابة أن يعرف الفكر الغربي.

على أثر إقامته النهائية في ألمانيا تعلق شمبرلين بالإبنة الصغرى لريتشارد ڤاغنر وأصبح صهره بعد وفاته. فيها أنجز تكوّنه الجمالي في «بايروتير بلاتير: التي استقبلت أبحاثه الأولى، وكتب مقالاتٍ في «البوليتيش أنترويولوجيش ريڤيو (المجلة السياسية الأنترويولوجية) وأصبح عضواً في «جمعية غوبينو». ترجم كتابه الرئيس Die Grundlhagen des neunzehten Jahrhunderts (1899) روبير غوديه Robert Godet إلى الفرنسية في عام 1913 تحت عنوان «تكوّن القرن التاسع عشر»، وقد اقترح هذا العنوان المؤلف شمبرلين نفسه. فكرته الأساسية هي الحفاظ على الدم الجرماني بفضل النضال ضد العناصر الغريبة على العرق الجرماني: معرفة الفكر الكاثوليكي الروماني واليهودية. أثناء الحرب العالمية الأولى، آمن بإمكانية النصر الألماني، وتمناه حتى إنه حصل على الجنسية الألمانية في عام 1917. كان يتكلم عن المهمة الإلٰهية لألمانيا، والتقى أدولف هتلر في «باردش» ـ Bayreuth في عام 1923 وتوقع قَدَرَ الرسام القديم. توفي في عام 1927 وأصرّ هتلر على حضور مأتمه شخصياً.

2 ـ نظرية العرق

يستبعد شمبرلين الخصائص الواضحة للعيان (لون الشعر الأشقر، الرسم العام للوجه) كما يستبعد أيضاً القياسات

الأنتروبولوجية. فهي تخص مجموعة بشرية معيّنة وبالتالي ما من قيمة لها بحد ذاتها. المقياس الحقيقي المحدد للعرق سيكون من المستوى السيكولوجي المحض. فبناءً على مهارة تعود إلى الذاتية[1] المحض كل واحد منا يجب أن يعرف الأعراق، بنظرة واحدة نافذة وأكيدة (أليس الأمر كذلك لدى مربي المواشي الذي يتمتع بذوق وعبقرية مهنته؟). هذا يتركنا أكثر من أن نحلم، فشمبرلين يعود إلى نادرة البنات التي «تبدأ بالصراخ حالما يقترب منها يهودي صافي الدم أو يهودية صافية الدم... تكفي نظرة ساذجة كيما يُسلط الضوء كشعاع الشمس على الحقيقة». غير أن النادرة ملفقة إذ يتعلق الأمر في حقيقته بباكورية «Anecdote» من الفتيات، معادية للسامية، كانت ترفض اللعب مع أطفال هم في مثل سنّها في بارك مونصو في باريس، عندما كانت تعرف أنهم إسرائيليون: كان هذا التصرف هو التطبيق الدقيق لتعليمات عدم التسامح التي كانت تتلقاها في بيتها. بالفعل، وعلى النقيض من ادعاءات شمبرلين: الإحساس بالعرق، هو أبعد من أن يكون نظرياً لدى الأولاد، فهو يُفرض من قبل المجتمع: ويشهد على ذلك هذا الطفل الباريسي البالغ من العمر 18 شهراً، من ذوي العرق الأبيض الصافي، والذي يمد يديه إلى أول إفريقي من أجمل السود، ينحني على سريره، وهو يصرخ «بابا!». نحن

(1) مذهب فلسفي يقيم المعرفة كلها على أساس الخبرة الذاتية ـ المترجم.

هنا تجاه حالة في منتهى الوضوح تتناقض كلياً مع البرهان العرقي (غير أنه مع ذلك يجب كل الحذر من استعمال «الحالات»).

المقاييس الثقافية والأخلاقية هي التي تحدد العرق. المهمة التي يضعها شمبرلين نصب عينيه تتلخص في اكتشاف الماضي من أجل إنارة المستقبل. بناءً عليه، يبدو أسقف ميلان أمبرواز Ambroise بالنسبة له وكأنه من أرومة أصفى من أرومة أسقف هيبون، وكذلك يغدو السلاف بسبب شعرهم الشعبي جرماناً... يوجد أكثر: إذا ما كان كل منا يتمتع بدرجة من الثقافة، بإمكانه ليس فقط التعرف على الإنتماء العرقي للآخرين، بل أن يبدي هو نفسه رأيه في أصوله الإثنية: «الذي يسأل من دون حكم مسبق وبكل سذاجة الأم الطبيعة... بإمكانه أن يكون متأكداً من الحصول على الجواب الذي تعطيه أم لولدها: جوابٌ ذو منطق ليس دوماً صلباً، لكنه جوهرياً جواب صحيح، ذكي ويبغى بناءً لغريزة متأكدة، الخير للذي توسله. كذلك الأمر بصدد السؤال عن معنى العرق، أحد أهم الأمثلة وربما الأكثر حيوية من كل الأسئلة التي تطرح على الإنسان. امتلاك «عرق» في ضميره الخاص، هو ذاك حقاً أكثر إقتناعاً مباشراً من كل البراهين. فالذي ينتمي إلى عرق محدد، إلى عرق صافٍ، يشعر به كل يوم... العرق يرفع الإنسان بنفسه فوق نفسه، يمنحه إمكانيات خارقة، وسأذهب إلى القول «فوطبيعية»، بمقدار ما

يميّزه عن الفرد المتحدر من اختلاط فوضوي لشعوب مختلفة». وبما أننا نشعر بكل ذلك بتأكيد شبه صوفي تغدو «الإستقصاءات العلمية لمعرفة ما إذا كان هناك بالفعل أعراق مميزة، وإذا ما كان للعرق قيمة، تغدو قليلة الأهمية». «النضع مجدداً الثيران أمام العربة ونقول: إن وجود الاعراق أمر بديهي؛ وامتلاك نوعية العرق قيمة حتمية هي صنيعة التجربة المباشرة». بإمكاننا التفكير من ثمّ في أن كل الأمم الأوروبية اختلطت في ما بينها بشكل عميق منذ ألفي سنة، فالعرق الصافي لم يعد موجوداً ولا أحد يخشى من سماع جواب الأم الطبيعة. الأمر ليس كذلك. بخلاف غوبينو المكشوف البصيرة، شمبرلين لا يرى الإنسانية الحديثة كـ «الجواميس المجترة في برك الماء الراكدة، في مستنقعات بونتان»، هو يا حسرتاه! متفائل، شجاع وبنّاء. بالنسبة له ليس السقوط من دون خلاص، وانحطاط العرق ليس من دون علاج؛ بالإمكان إعادة صفاء الدم لمجموع بشري، شريطة الأخذ بالوسائل اللازمة. فمنذ التاريخ الذي أكّد فيه غوبينو سقوط البشرية النهائي، فإن علم البيولوجيا تقدم كثيراً. لقد برهن داروين على أن التهجين يقضي على العزايا الخصوصية للأعراق: التهجين الحر يشوّه العزايا، وعند الحيوانات يؤثر ذلك، وبكل تأكيد على المستوى الجسماني، لكن أيضاً يضيف شمبرلين «هذا حقيقي خصوصاً بالنسبة للاستعدادات الأخلاقية، فنحن نرى كلاباً هجينة شديدة الحذر، لم نعرف كلاباً تستحق الثقة

الكاملة، هذه تكون دوماً خبيثة». زيادة «عرقٌ يصير رويداً رويداً نبيلاً، وهذه العملية من التأصيل نستطيع البدء من جديد في كل لحظة». فالأعراق البشرية التي إذا كانت تتشوّه بهذا المقدار تكراراً تحت أعيننا بناءً عليه تستطيع أن تكون مجدداً. ان «نظام العرق»، يقتضي الأخذ «بخمسة قوانين في الطبيعة» هي كذلك شروط لتكوين الأعراق النبيلة.

أ ـ مادة أولى من نوعية ممتازة هي بلا ريب الشرط الرئيس: لكن ما أن تصاغ هذه الضرورة، يضيف شمبرلين، في تناقض يبدو أنه لا يشعر به هو نفسه، «أمّا إذا سألني أحدهم من أين تأتي هذه المادة الأولى أجيبه لا أعرف شيئاً على الإطلاق واني بالنسبة لهذه النقطة جاهل أيضاً حتى لو كنت من أكبر العلماء».

ب ـ تطبيق زواج القربى[1] **لمدة طويلة** الذي لن تكون العلاقات المُنجبة إلا بين الأقارب المقرّبين من ذوي العرق نفسه، يتكاثر العرق من داخله بنفسه، هذا هو نظام زواج القربى أو اللحمي.

ج ـ حَقّ الإنتخاب أن يلعب دوراً داخل هذا النظام: هو يقوم بعملية فرز بين العناصر المرغوب في إعادة إنتاجها وتلك التي يلزم استبعادها. بالتأكيد هنا يتم التعرف على

---

(1) الزواج اللحمي ـ وجوب التزوج من أفراد القبيلة نفسها ـ المترجم.

مبادئ التربية كما تمارس اصطناعياً على النباتات والحيوانات مما يسمح بفهم قانون الانتخاب.

هـ ـ **ضرورة الاختلاط** هو القانون الرابع، والذي يُدهش لتسطيره من قبل شمبرلين. غوبينو، الذي كان قد اعترف بهذه الضرورة للوصول إلى الحضارة؛ شمبرلين يستدعي المثل من قدامى اليونان و. . . من كلاب الأرض الجديدة Terre-neuve: «حقيقة الأرض الجديدة كانت تكوّنت من التهجين بين كلب الأسكيمو مع كلب فرنسي، ثم وصل إلى ثبات وصفاء نموذجه بفعل الزواج اللحمي الطويل الأمد.. وأخيراً وصل النموذج عبر الانتخاب إلى أعلى درجات النبالة». «ليس لدينا أدنى مبرر لاعتبار الجنس البشري بمثابة الاستثناء. . . وبما أنه. . . ليس بمقدورنا إجراء التجارب على الإنسان، يلزم أن نأخذ النصح من التجارب التي جرت على الحيوان وعلى النبات».

هـ ـ **حَقّ للاختلاط أن يكون محدداً أو محدوداً**. بعض عمليات التهجين تؤصِّل العرق، إنما ليست كلها؛ يوجد منها ما يقضي على العرقين موضوع التهجين. بناء عليه يجب أن تتوفر هنا بعض الشروط الدقيقة والصارمة. من جهة أخرى، حَقّ لعمليات التهجين أن تكون محدودة بالزمن، وهذا يعني أن منح الدم الجديد يستلزم حصوله بأقصى سرعة، ثم يُوقف: «الاختلاط المستمر يؤول بالعرق الأقوى إلى الهلاك». نقرأ في النصف الثاني من القرن العشرين عبارات

تقول: «لسنا في وضع يسمح لنا بأن نضع عدداً من الناس في حظيرة ونعتبرهم موضوعاً لتجارب علمية تمارس عليهم لمدة أجيال. ليس بوسعنا التأكد، إذا ما تمكنا من القيام بالتربية الاصطناعية للبشر، من أننا لن نحصل بالتالي على فروقات ضخمة، من الناحية الجسمانية، فروقات في المقاييس، النسب، نمو الشعر على الأغشية، إلخ.». هذه الاستحالة التي لاحظها شمبرلين ـ مع شديد الأسف ـ قد أزاحها النازيون بعد إنقضاء بعض العقود.

3 ـ التوقع التاريخي للعروق

أ ـ سفر التكوين للشعب اليهودي سيبدو كأنه التطبيق للقوانين الخمسة التي عرضنا لها وهو يطرح مسألة معاصرة ومباشرة بقدر ما نحن نعيش في «عصر يهودي». اليهود يستحقون إعجاب شمبرلين للمهارة التي يستعملون بها **قانون الدم** من أجل نشر سيطرتهم: «الأرومة الرئيسية بقيت دونما تلوث، ما من نقطة دم غريب نفذت إليها». بوسع الفتيات اليهوديات الزواج من غير اليهود، لكنّ الذكور من اليهود لا يستطيعون الزواج من الفتيات الأجنبيات. اليهود يظهرون نظير «عنصر خاص وغريب في حياتنا». تأثيرهم على التاريخ الأوروبي «ليس بالقليل وبالضبط فهو نحس في الكثير من المستويات»، عليهم تقع «مسؤولية... في العديد من المغامرات التاريخية التي لم تكن إلا توارث، ومسؤولية في

سقوط العديد من الشعوب البطلة والشديدة البأس».

انبثق اليهود من التهجين بين نماذج بشرية مختلفة كل الاختلاف. لكنّ العرق اليهودي وعى عيبه الأصلي، على اعتبار أنه يوجد في عمليات التهجين هذه التي أدت إلى الانحطاط «جرم العيب في الدم، جرم ضد الطبيعة». وجود الشعب اليهودي «هو خطيئة، وجوده جرم ضد القوانين المقدسة للحياة... ليس الفرد مَنْ ينبغي غسله، إنما الشعب بكامله ينبغي غسله من غلطة حدثت ليس عن وعي بل عن لاوعي».

ما تقدَّم في كل الحالات مناسبة للذكر أن اليهود مُقدمون هنا كمنتمين قبل كل شيء إلى عرق وليس بشكل أساسي إلى دين. نحن بعيدون عن معاداة السامية على أساس ديني أو حتى إقتصادي كما في القرون الوسطى. أيضاً نحن بعيدون حتى عن أنظمة طليطلة Dolède.... فالأيديولوجية العرقية التي ميّزت القرن التاسع عشر عزلت اليهود. توسينيل Toussenel جعل منهم «ملوك العصر»، بعد انقضاء خمسين سنة، ما قبل شمبرلين بقليل، رسم لهم درومون Drumont صورة جسمانية تتخطى ومن بعيد الرسوم القروسطية الساخرة: «السمات الرئيسية التي نتعرف من خلالها على اليهودي تبقى إذن: هذا الأنف المعكوف المعروف، العينان البارزتان، الأسنان المكزوزة، الأذنان البارزتان، الأظافر المربعة بدلاً من أن تكون مدورة بشكل حبة اللوز، الجذع المفرط في الطول،

القدم الفطحاء، الفخذان المدوران، العرقوب[1] البارز بشكل غريب، اليد اللينة والملبسة للخبيث والخائن. وغالباً ما يكون أحد الذراعين لديهم أقصر من الآخر». منذ عام 1880 اعتبرهم دوهرنغ Dühring نظير «عرقٍ مؤذٍ غير محتمل». في ذلك بالحقيقة شكل جديد لمعاداة السامية؛ لكنه فقد أصالته ولم يعد منذئذٍ أكثر من عنصر في مجموع أكبر: العنصرية.

ب ـ **الفوضى الإثنية.** هي مجموع الشعوب المتواجدة في إطار المجال الجغرافي القديم للإمبراطورية الرومانية. ناكراً كل شجاعة اليونان في معركة سالامين Salamine، شمبرلين لا يتردد في أن يقيم تضامناً بين الفظاظة السامية ـ الهيللينية وبين اللطف الإيراني. الفن والفكر اليونانيين موجودان حقاً، وما أعطيا من تحف رائعة، لكن كم يتفوق عليهما غوته وريتشارد ڤاغنر. صحيح أن الرومان كانوا يتمتعون بالشعور الراسخ بالقانون، لكن هذا الأخير أصيب بالتحجر مع جوستنيان ومعاونيه. ما لا شك فيه أن أمر كراكلا (كراكلا الدموي الوحشي السرياني ـ القرطاجي!) الذي منح عام 212 حق المواطنية الرومانية لكل سكان الإمبراطورية سرّع في انهيار الحضارة: لم يعد هناك من مواطنين ولن يكون سوى رعايا. وقد اختزل الكاتب لوسيان دي ساموسات ـ Lucien de Samosate في شخصه كل عيوب عصره، وبالإمكان مقارنته بِ

---

(1) عصب غليظ فوق العقب ـ المترجم.

هاينيه Heine (معلومةٌ المحارق التي أقامها النازيون من كتب هذا الأخير).

بقاؤه مسيحياً (على طريقته)، احتفظ شمبرلين ببعض الاستلطاف لكنيسة القرون الأولى؛ وإذا ما عاب عليها زهدها الشديد، فسيعطي له بسرعة تفسيراً عنصرياً: إذا ما رفض النسّاك المسيحيون الإنجذاب، فذلك لأن هذه العقول الثاقبة، كونها شعرت بسر زمانها، أرادت أن تتجنب مرة ثانية نقل الدم الملوث بالكثير من الاختلاطات: «النفوس النبيلة تحيد بترفع عن هذا العالم الدنس... تُميت الجسد وتمارس سر التوبة[1]. ثم تزول من دون أن تترك أبناء».

كان عصر النهضة مرحلة انبعاث الفوضى الاتنية التي قُنّعت فيه القرون الوسطى بواسطة طبقة جرمانية رقيقة من غزوات القرن الخامس. وقد تقمص الفوضى في القرن السادس عشر شخص إنياس دي لويولا Ignace de Loyola: الإستلهام من عمله أمر سيّء، لأنه لم يتحدّر من عرقٍ صافٍ، إنه من الباسك!... «إذن فأنا أقدم للقارئ بشخص إنياس دي لويولا نموذج الأنتي - جرماني»[2]. إنه لأمر غريب مقارنة تأكيدات شمبرلين برأي المعادي المطلق للسامية: إ. درومون E.Drumont الذي كتب في «فرنسا اليهودية»: «اليسوعي هو

(1) أحد الأسرار السبعة ـ المترجم.

(2) المعادي للجرمانية ـ المترجم.

النقيض المطلق لليهودي، إنياس دي لويولا هو آري صافٍ».
أن يكون نابليون «رسول الفوضى ليس بالأمر المثير للدهشة، ومن الممكن أن يكون المكمّل الحقيقي لِـ الأنياس دي لويولا، إنها تشخُصُنٌ جديد للأنتي ـ جرمانية. النتيجة من كل هذا واضحة بأنه «بقدْر ما يكون بلد أقل جرمانية بقدْر ما يكون أقل تحضراً. الإنتقال من لندن إلى روما... هو انتقال أيضاً من الحضارة الأكثر تهذيباً والأعلى ثقافة إلى نصف ـ البربرية، حيث القذارة، الجهل، والكذب والفقر».

ج ـ **الجرمان**. مفهوم شمبرلين للجرمانية هو أوسع من المفهوم الذي أعطاه غوبينو. فحسه الإتني هو أقرب إلى أوروبا الوسطى وأبعد من إسكندنافيا، غير أنه لا يقبل في صفوف الجرمان إلاّ السلاف الحقيقيين.

من جهة السلت، حصتهم بعدُ أكثرية حسنة؛ المبشر بولوس في رسالة إلى الغالات Galates (من أصل سلتي) توجه إليهم بلهجة مغايرة لتلك التي استعملها في توجهه نحو الرومان المنحطين. في القرون الوسطى، فإن شعر القصائد التاريخية البرتون Breton كان أقرب إلى الروح الجرمانية. دونس سكوت Duns Scot وأبيلار Abélard كانا في علم اللاهوت ممثلَيْن جيدين للسيلت. في القرن الثامن عشر، فرنسا كانت لا تزال آرية، في النظر إلى أن فولتير الذي يعتبر ممثلها الثقافي النموذجي كان جرمانياً صافياً بسبب معاداته الكاثوليكية. لكن، من المتفق عليه، أن إعلان حقوق الإنسان

كان نشوءاً من البورجوازية وفوضى الشعوب.

شمبرلين تحدث عن الجرمان بحماس مساوٍ للحماس الذي يشهده غوبينو للأريان. بخصوص الفوضى الاتنية في المرحلة المتأخرة من الإمبراطورية «شعاع فاردٌ من النور، سَطَعَ على هذا العالم المنحط. وقد أتى سن الشمال».

شمبرلين كان أحد المنتفعين الأكثر تساهلاً والأكثر مباشرة سن غوبينو بشأن مؤيدي الجرمانية: هؤلاء الذين أخذوا به من دون تردد ولا تأخر، بحسب مقدار دراسة الإمكانات الدينية، للأعراق الثلاثة أتت لتقوي العنصرية المسيحية[1].

4 ـ المغزى الديني للأعراق الثلاثة الأوروبية

المهم هنا، قبل كل شيء النظرة إلى العالم، الرؤية والمفهوم للعالم التي كان مبشَّر بها في كل مجموعة إتنية.

أ ـ العبادة اليهودية الموحّدة. في أواسط القرن التاسع عشر، توفرت قناعة محدّدة عند معظم مؤرخي الديانات بأن الشعب اليهودي موهوب أكثر من سائر الشعوب، بطاقة تختص بالدين مستحقة النظر إليها. من بدء عمله، شمبرلين يؤكد في مؤلفه النقيض: «لم يوجد أبداً مخلوقات بشرية أكثر فقراً باعثاً على الرثاء على هذا المستوى الديني من الساميين وخصوصاً الأخوة غير الأشقاء منهم: اليهود... ونحن

(1) الاعتقاد بالمسيح ـ انتظار مجيء المسيح ـ المترجم.

نُجَرجَر لليهود كعبيد مشوهين بإرادتنا خلف تابوت العهد ليهوا!». بعد مقارنةٍ بالأعراق الآرية، الشعب اليهودي هو، على المستوى الديني، في أقصى حدود العقم.

ب ـ **الفوضى الإثنية والدين.** لا يدعو للدهشة أن تكون قسوة شمبرلين هنا جسيمة جداً، وأن يكون سكان حوض البحر الأبيض المتوسط، نظراً إلى مفهومهم للعالم، دون اليهود. «أما أطمار[1] الأفارقة، المصريين وغيرهم من الخلاسيين الذين ساعدوا في بناء الكنيسة المسيحية، ليس الهمُّ أن نتحدث عنهم». «الفرنسي يتأرجح بين شكوكية جافة لا تحميه من عدم التسامح وبين إكليروسية وحشية تدعوه إليها، . . . الأوروبيون سكان بلاد الجنوب وقعوا في عبادة الأوثان دونما تزويق مُسْتَبعَدين بهذه الطريقة من عالم الشعوب المثقفة». أمّا أنه دائم الإستعداد للإضطرام بجاذبية رجل مهذّب لأجل خصومه، شمبرلين يرضى عن أن ينصف موهبة الحكم عند الكنيسة، فيقول: «إنّ أكثر ما يثير الإعجاب في روما هو منهج التنظيم، مقدرة العامل التقليدي، معرفة القلب البشري من الأشياء التي بها روما عظيمة وباهرة أفضل مما نعرف أن نقول».

ج ـ **الديانة الكاثوليكية للجرمان (الكاريزما).** إذا ما تأملنا في موقف شمبرلين العدائي والإزدرائي لليهود لا يسعنا إلا

(1) مجموع أشياء تافهة ـ المترجم.

أن تتملكنا الحيرة من أن يكون المسيح مخلوقاً في فلسطين، مؤسساً لديانة سوف يعتبرها شمبرلين في صفائها بمثابة الأنموذج الآري. فالمسيح لم يكن يهودياً! وكلام الخليليين يبرهن بأنه لم يكن يهودياً و«إنه من المحتمل أن المسيح لم يكن يحمل في عروقه نقطة واحدة من الدم اليهودي وأن هذا الاحتمال يوازي تقريباً التأكيد». خلا ذلك، حيث إن عدداً من مواقف المسيح من الممكن أن تجعله يبدو آرياً، الجرمان كانوا على استعدادٍ بوجه الخصوص لتقبل الرسالة المسيحية: «في يسوع المسيح تجلت للعالم العبقرية الدينية بشكل مطلق؛ ما من أحد أجود من الجرمان لسماع هذا الصوت الإلهي...». لكن كل ذلك سوف يطمس لمدة طويلة، «الدين... لم يتمكن أبداً أن ينتزع «القميص الجبري»(1) الذي فرض عليه؛ مع ظهور الجرمان في التاريخ العالمي، بأيدٍ غير شريفة، بأيدي أبناء هجناء الفوضى الاتنية...». «أيضاً غوته تدبَّر أن ينشد من كل قلبه: «إنها صفة من المجد يا ابن ألمانيا أن تكون مبغضاً للمسيحية!». على ألمانيا بناءً عليه أن تبقى أمينة لندائها الباطني العميق ورسالتها، على ألمانيا أن تضع ديانة جديدة وتنشرها: «الواقع أنه لم تكن توجد بالفعل مسيحية مقبولة منا، لكن الأمر اصبح أخيراً ممكناً». وإذا لم يحدث ذلك، فإن روما التي لها «حلفاء

(1) قميص المجانين ـ المترجم.

طبيعيون عند كل خصوم الجرمانية» لن تتأخر عن الانتصار. «إذا لم يحدث عما قريب في ما بيننا نهضة نشيطة... وإذا لم ننجح في تخليص مسيحيتنا من بهرج الغرباء الذين تجرجره خلفها»... إذا لم نتوصل إلى خلق «ديانة تتوافق بالضبط والجوهر الخاص لأنموذجنا الجرماني... لا بد لنا عندها من توقع رؤية ظهور إينوسان ثالث آخر، من خلال أشباح المستقبل مع مجمع ديني جديد في لاتران Concile de Latran، وتوقع رؤية اشتعال محارق التفتيش من جديد». بعد مضي أقل من عشر سنوات على وفاة شمبرلين، ظهرت إلى الوجود ديانة عنصرية: كل هذه المسائل المتفجرة والمثيرة للدخان أعطت القادة النازيين الأسس لعملهم السياسي وشكلت المماحكات الأولية التي قامت عليها. وإن لم تشتعل محارق التفتيش لما أظلم دخان أفران حرق الجثث سماء البشر.

III ـ ڤاشيه دي لابوج

1 ـ أسس الأنتروبو ـ سوسيولوجيا

أ ـ ڤاشيه دي لابوج Vacher de Lapouge: المنهج والأفكار السياسية. كان فرنسياً مثل غوبينو، استطاع أن يستخلص من الدروس الحرة التي كان يُعلّمها في جامعة مونبيليه ـ المادة اللازمة لثلاثة كتب: الانتخاب الاجتماعي (1896)، الآري ودوره الاجتماعي (1899) العرق والوسط

الاجتماعي (1909). لسوف يكون المنشئ وأحد زينات المدرسة الأنتروبوسوسيولوجيا. بالنسبة لهذه المدرسة، كل شيء يقوم على المعطيات «العلمية»، القابلة للقياس، وكل شيء يتوقف بصورة رئيسة على مقياس المؤشر الرأسي، الذي هو في أساس التقسيم إلى قصيري الرؤوس (أرقام كبيرة رؤوس عريضة) ومستطيلي الرؤوس (أرقام صغيرة ورؤوس طويلة). هذا نظراً إلى كل من قصيري الرؤوس ومستطيلي الرؤوس الذين بذلوا وسعهم لتحديد القيمة والاستعدادات لعرق ما ولسكانه. ولنقل مباشرة أن النتائج تبدو بشكل عام كأنها نشيد المديح لمستطيلي الرأس الأشقر.

أما من جهة الأفكار السياسية، فلابوج يكره المساواة التي تفضي أكثر فأكثر إلى النفاذ في المجتمع عبر الطريق الديمقراطي. وعوضاً عن تخيلات العدل، المساواة، والأخوة، فالسياسة العلمية تحبِّذ واقع القوة والقانون والعرق.

ب ـ **الانتخاب الاجتماعي**. تحدث بروكا عن الانتخاب «الاجتماعي» للإشارة إلى أنه في المجموعة، فعملية الانتخاب الطبيعي تُستكمل أو تُستبدل بالمقاييس الاجتماعية العائدة إلى الجدارة أو النجاح. وكل منهما ـ الانتخاب الطبيعي والانتخاب الاجتماعي ـ يطور الخصائص النافعة للفرد، معتبراً تارةً من النوع وتارةً كعضو في المجتمع. في مجتمعاتنا المعاصرة، يلعب الدور الأكبر فعل الانتخاب في

الوسط الاجتماعي، لكنه لا يذهب بالضرورة في اتجاه تحسين العرق. الطبيعة تقوي وتحسن النموذج المثالي، فالانتخاب الاجتماعي غالباً ما يؤمّن رجحان كفة الضعفاء.

عني لابوج بـ «الانتخاب الداخلي»، النجاحات المتحققة من قبل الأفراد أو المجموعات في الوسط الاجتماعي، وبـ «الانتخاب البَيْفُرجي»[1] أصغى إلى غزو مجموعة من قبل عناصر غريبة أتت لتنقص من نوعيتها. بناءً عليه، في مقبرة «مونبلييه»، للقرنين السابع عشر والثامن عشر، الجماجم المأخوذة من قبور الطبقات المتفوقة كان مؤشرها 74,8 وتلك المأخوذة من القبور العادية كان مؤشرها 78,3. كان هذا، له، علامة نجاحٍ مُتحقّقٍ من قبل «المستطيلي الرأس» بواسطة الانتخاب الداخلي، وإذا ما رأى لابوج في ذلك إبانة نوعٍ من العدالة الطبيعية في الحياة الاجتماعية، فكان عليه أنْ يوافق على أن «الانتخاب البَيفُرجي» قد لعب دوراً فعالاً، لكنه مشؤوم، وذلك كونه أفضى إلى تنامي قصيري الرأس بين الفرنسيين. وذلك سيؤدي به إلى نوع من التشاؤم القريب من تشاؤم غوبينو، فالطبقات المتفوقة ذات الرؤوس المستطيلة تتراجع كل يوم في أوروبا الغربية.

(1) واقع أو حادث بين فرجتين ـ المترجم.

2 ـ قوانين الأنتروبوسوسيولوجيا

أ ـ تبويب الأعراق الأوروبية:

ـ **الإنسان الأوروبي**. طويل القامة، أشقر الشعر، من مستطيلي الرؤوس وذو وجه متطاول (في الجزر البريطانية وأوروبا الشمالية)، هو من الناحية السيكولوجية مسيطرٌ ومتأكد من نفسه وطموح. وهو شجاع، لديه المبادرة ولا يتطلب من الدولة سوى احترام نشاطه؛ من ناحية الدين هو بروتستانتي، على اعتبار أن استقلاليته لا تنسجم مع سلطة الكنيسة: هو ابن عم «الأرياني» كما تصوره غوبينو.

ـ **الإنسان الألبي**. هو صغير القامة، أسمر، مستدير الرأس والوجه، هو من قصيري الرؤوس ذوي الأنموذج الأوفرني ـ Auvergnat. . . والتركي. هو السائد في فرنسا، إيطاليا، وبلاد البلقان. لكونه متعلقاً بالتقاليد فهو يعمل ببطء، وأبعد من أن يحاول أن يكون الأول، فيعمل على الاختباء وراء جاره. من الناحية السياسية هو «العبد بكل ما في الكلمة من معنى والفن المثالي. . . وفي الجمهوريات كما لدينا المواطن الأكثر اعتباراً، ذلك لأنه يتحمل كل التجاوزات». هو كاثوليكي، يجب الاعتدال ويخشى التقدم، هو الذي وضع أساس الحضارات اليونانية والرومانية كما حضارة أوروبا الغربية.

ـ **إنسان البحر الأبيض المتوسط**. أسمر البشرة، من

مستطيلي الرأس. توجد نماذجه بالضبط عند «النابوليتانيين والأندلسيين». لكن بما أن هناك العديد من أنواعه، فإن لابوج يتوقف قليلاً جداً عند هذه الفئة.

ب ـ قانون آمون La loi d'Ammon ومستطيلي الرؤوس المدينيين.

نحن مدينون بهذا القانون للعالم الألماني آمون، أحد مؤسسي الأنتروبوسوسيولوجيا، كما يسمى هذا القانون أيضاً بقانون التركّز المديني لمستطيلي الرؤوس. وُضع هذا القانون على أثر تفحص متطوعي بادن Baden الجدد في عام 1886. اكتُشفت فروقات بين سكان الريف وسكان المدن من جهة لون العيون والشعر وخصوصاً ما يتعلق بشكل الرأس. في حين كان المؤشر الرأسي هو حوالى الـ 80 لسكان مانهايم Mannheim، هيدلبرغ Heidelberg، وكارلسرو Karlsruhe، فقد بلغ 85 لسكان الأرياف المجاورة. رؤوس المتطوعين الجدد في المدن أطول وأضيق من كانت رؤوس المتطوعين الجدد في الريف؛ وهذه الملاحظة انضمّت إلى تحقيقات مماثلة جرت في فرنسا أو إيطاليا. اقتُضي استخلاص بعض العمليات الانتخابية: كانوا الأكثر طموحاً ونشاطاً من بين الفلاحين هم الذين ينزحون نحو المدن، وكان أكثر مستطيلي الرأس بين الريفيين: وبالتالي فبفعل شيء من التراكم، يصبح سكان المدن أكثر وأكثر من مستطيلي الرؤوس (وفي داخل هذه الفئة، فإنّ الطبقات الحاكمة هي من مستطيلي الرؤوس

بدرجة أعلى من الآخرين)؛ في حين، بالطبع، تميل نسبة قصيري الرؤوس في الريف إلى التزايد. وبناء عليه، ستقوم مدرسة الأنتروبوسوسيولوجيا ما بين 1883 و1900 بتحقيقات أدت إلى قياس آلاف الجماجم. وقد قسّم آمون المجموعة المدينية إلى ثلاثة فئات: المدينيون بالمعنى الحصري (المدينيون المتحدرون من مدينيين)، أنصاف ـ المدينيين (المدينيون المتحدرون من ريفيين)، وأنصاف الريفيين (الريفيون-النازحون إلى المدن)، وكان يجهد للبرهان على أن هذين الأخيرين كانا من مستطيلي الرؤوس أكثر ممن بقواتين الريف.

ج ـ **قوانين لابوج الأساسية**. انبثقت كلها من قانون آمون ويبلغ عددها أحد عشر، غير أننا سنقتصر على ذكر اثنين منها.

ـ **قانون المؤشر المديني**. المؤشر الرأسي لسكان المدن هو دون المؤشر الرأسي لسكان الأرياف الذين يحيطون بهم بشكل مباشر. وقد جرت تحقيقات من هذا النوع في الأفيرون وفي ضواحي مونبلييه في غربي فرنسا، وفي ألمانيا.

ـ **قانون المثقفين**. جماجم المثقفين هي أكثر تطوراً في كل قياساتها، وخصوصاً بالعرض. فهناك بالنسبة لهذا الموضوع تغيير في عرض الجزء الأمامي للقحف من الممكن أن يستمر طيلة العمر؛ غلادستون... وقد كان Gladestone

مثلاً شهيراً هنا ويصرح لابوج يصرح أنه تحقق من هذه الظاهرة هو بعينه.

3 ـ نقد قوانين الأنتروبوسوسيولوجيا

أ ـ قانون التركز المديني لمستطيلي الرؤوس. السبب العميق في أنّ الرؤوس الطويلة هي نسبياً الأكثر تواجداً في مدن فرنسا وألمانيا هو ذو طبيعة تاريخية: النموذج الألبي وصل متأخراً إلى أوروبا الغربية واستقر بصورة رئيسية في المناطق المرتفعة مثل الفوج les Vosges، والسافوا la Savoie أو الأوفرني l'Auvergne. المدن التي اهتم بها آمون ولابوج (مدن وادي الرين Rhin ومونبلييه وضواحيها) تقع على مقربة من المناطق المأهولة بقصيري الرؤوس. هذه المدن التي كانت نسبياً مأهولة بـ «مستطيلي الرؤوس» في البدء، اتجهت إلى أن تصبح مأهولة بـ «قصيري الرؤوس» بسبب الهجرة، لكنها بقيت دون الجبل المجاور.

زيادة على ذلك، يوجد في المدرسة الأنتروبوسوسيولوجية تناقض: يعلنون أن نموذج مستطيلي الرؤوس هو الذي يهاجر إلى المدن، لكن هذه الأخيرة أصبحت مأهولة أكثر وأكثر بقصيري الرؤوس. يُستخلص هذا الأمر بوضوح من الجداول التي نشرها لابوج وخصوصاً بالنسبة لمقاطعة الأفيرون l'Aveyron: فالمؤشر الرأسي الوسطي هو 85,5، إذ من أصل 70,000 مهاجر، 26,736 نزلوا مقاطعة السين La Seine حيث

المؤشر الرأسي هو 81,5 و18,191 نزلوا مقاطعة الهيرولت l'Hérault حيث المؤشر الرأسي هو 82,5. واضح أنهم نزلوا في المقاطعات التي مؤشرها الرأسي هو دون مؤشر الأفيرون. وبالتالي من الخطأ التأكيد أن النموذج التوتوني يميل إلى التنقل والاغتراب وأن قصيري الرؤوس المتفرج يبقون في الريف. . . . يجب أيضاً ملاحظة صِغَر الفروق بين المؤشرات التي، على سبيل المثال، لأجل30,000 مطلوب للتجنيد دُرسوا في إيطاليا من قبل ليڤي Livi، هو دون الوحدة. بوجه الإجمال فإنّ تحليل الجداول الإحصائية التي وضعها آمون هو مرضٍ ويقدم تعليمات في الاتجاه المرجو من قبل مؤلفيها. لكننا نتساءل هل يكفي المؤشر الرأسي وحده لوضع أطروحة بهذا الشكل المطلق؟.

ب ـ قانون التشطير الاجتماعي أو تفوق مستطيلي الرؤوس المزعوم. يتواجد الأشقر الطويل القامة، التوتوني أو الشمالي، غالباً ما بين الطبقات المتفوقة، ويتناقص المؤشر الرأسي بالتدرج من طبقة الفلاحين إلى طبقة الحرفيين ومن هذه الأخيرة إلى طبقة أصحاب المهن الحرة. هذه هي النتائج التي وصلت إليها مدرسة الأنتروبوسوسيولوجيا، غير أنها كانت صادقة باعترافها أنها شديدة الارتباك بسبب ما يسمى «قانون المثقفين»، والذي بموجبه، يشكل المثقفون طبقة خاصة ويظهرون ميلاً إلى أن يمتلكوا رأساً عريضة ومستديرة (هذا يتوافق مع العبارة الشعبية «له رأس ضخمة»).

كتب لابوج في هذا الصدد: «يميل المثقف إلى أن يكون له بالنسبة لطوله جمجمة فئته أو الأبعد منها، عرض أكبر... فيصبح من قصيري الرؤوس بشكل مغلوط». لكنّ هذا التعليل لا يفسر شيئاً كبيراً، واستحالة الدفاع عن التفوق النفسي أو العقلي العائد إلى مستطيلي الرؤوس أو جبلة الإنسان الأشقر، كل ذلك أجهز على أطروحات مدرسة الأنتروبوسوسيولوجيا. سُجلت ملاحظة أن «العبيد» هم من بين كل الشعوب الأكثر استطالة للرأس فيفترض أن يكونوا في قمة التقدم، في حين أن الآري الذي كتب عنه لابوج في سنة 1899 هو الذي «يسيطر في الفنون، الصناعة، التجارة، والعلوم، والآداب؛ هو المحرك الأكبر للتقدم». المقصود هنا، هو الآري في نقد الدكتور هوزيه D.Houzé الأنتروبولوجي البلجيكي لـ لابوج، فقد قال في عام 1906: «كونه نموذجاً إتنياً، الآري طفل وهو لقيط اللغويين؛ وقد شكلت الأنتروبوسوسيولوجيا ملجأ له».

قوَّت مذاهب مدرسة الأنتروبوسوسيولوجيا قوّت بشكل هائل الغطرسة العرقية، وعبادة إنسان الشمال، الأشقر، المستطيل الرأس وأسطورة الجرمانوية[1] والشوفينية التوتونية. راهن لابوج فقط على المؤشر الرأسي ومنذ عام 1887 كتب: «إني لمقتنع بأنه في القرون التالية سيحصل

(1) الجامعة الجرمانية، نزعة توحيدية جرمانية ـ المترجم.

الذبح بالملايين من أجل درجة أو درجتين أكثر أو أقل في المؤشر الرأي؛ هي ذي العلامة التي حلّت محل الإشارة الإنجيلية والقربى اللغوية التي بها سيحصل التمييز... آخر العاطفيين سيقدرون أن يكونوا شاهدين على إبادات غزيرة لشعوب بأسرها». بعد مضي أقل من ستين عاماً، تأكدت البشرية جمعاء من الصحة الدقيقة لهذه النبوءة الكئيبة.

الفصل الرابع

الإشتراكية الوطنية

نصل مع الإشتراكية الوطنية إلى النقطة التي تصبح فيها المذاهب العنصرية موضع التطبيق وبشكل فعّال حتى ليصعب الفصل بين النظرية والتطبيق. يجب أن نضيف أن كتاب «كفاحي» لم يكن يريد كاتبه أن يكون كتاباً عقائدياً بل كتاباً للعمل و«الصراع»، ونجد فيه مواضيع الدونية العرقية المأخوذ بها سابقاً معالجة بشكل متمثل نوعاً ما، من قبل عصامي أصبح رجل عملٍ عبقرياً. ألفرد روزنبرغ Alfred Rosenberg وف.ك. غونتر F.K.Günther ظهرا كأنهما مثقفي من الحزب، وبالمقارنة بـ «كفاحي» كأنهما المؤلفان العليمان اللذان يريدان أن يكونا مفكرين عميقين، لكنهما لا يتمكنان من ذلك في نظر البعض إلا بالشكل العويص والضبابي الذي يعطيانه لمقولاتهما الانفعالية العرقية.

I ـ هتلر و«كفاحي»

كتب هتلر «كفاحي» في عام 1924 في قلعة لاندسبرغ آم ليش Landsberg am Lech؛ إن هذا المؤلف الضخم في جزئين الذين سيشكل إنجيل الإشتراكية الوطنية، والذي كان مؤلفه يرفض أن يترجم، هو في الواقع ثمرة المهارة التبسيطية المتعمدة من قبل رجل كان قليل المطالعة، أراد أن يبرهن على الحس السليم كما أراد لبراهينه أن تثير انتباه القارئ العادي بمنتهى بساطتها. من دون شك أن هتلر كان قضى في ما يتعلق بالموضوع في مدرسة جيدة، لسبب يظهر أنه كان يقرأ بانتظام في ڤيينا مجلة أوستارا Ostara التي كان يديرها حوالي عام 1905 جورج لانزڤون ليبنفيلز Jorg Lanz von Liebenfels الذي كان قد رفع على قصره في ورتنشتاين Wertenstein علم الصليب المعكوف (في ذلك الزمان!)؛ وسط كثيرٍ من الهذيان حيث الباطنية تنافس الغباء، وحتى التهريج، كان ليبنفيلز يتابع خطة تأسيس «جماعة الذكور الآريين المدعوة إلى أن تكوّن طليعة عرق الأسياد الأمراء الشقر ذوي العيون الزرقاء في المعركة الدامية مع الأعراق الهجينة الدونية». في التاريخ عينه كان يُتداول أدبٌ لقضية، من مرتبةٍ دنيا، وقد شكلت نموذجه رواية آرتور ديتر Arthur Dinter، «الخطيئة ضد الدم»، حيث الخلاصة المفترض أخذ العبرة منها: فتاة شابة كان لها علاقات مع يهودي فوضعت طفلاً، لكنه لم يعش؛ تزوجت فيما بعد من آري وضعت منه

طفلاً كان شبيهاً بالأول، فمع النموذج اليهودي الكاريكاتوري؛ نحن تجاه مناداة الادعاء بوراثة الإشراب[1]: حكم مسبق من خيال محض، مأخوذ به عند كثير من مربي الحيوانات الداجنة.

من دون شك أن العنصرية الصرف لم تُبَجّل أبداً بهذا الشكل الكامل كأساس ومنطلق لسياسة ما. ربما يعود ذلك إلى أن هتلر لم يكن ليتراجع أمام الصيغ المطلقة التي لم يحملها الكثيرون خارج ألمانيا على محمل الجد وظنوا أن الأمر على الأكثر، لا يعدو الجمجمة الخطابية والمبالغات المفرطة التي لن تُطبّق أبداً. لم يصدف أبداً أن لعب اليهودي في التاريخ مثل هذا الدور ـ الضحية. الواقع أنه في ڤيينا وفي أيام شبابه أحس هتلر بالدور النجس الذي يقوم به اليهود: «هل كان اليهود مجرد قذارة، هل كانوا عاراً بأي شكل من الأشكال خصوصاً في الحياة الاجتماعية، التي شارك فيها واحد منهم على الأقل؟ الصحافة، الفن، الأدب، السينما، والمسرح هي المجالات التي أحصى هتلر فيها اليهود الذين يتحركون كأسوأ البكتيريات ويسممون النفوس». هنا لسوف تبرز قضية التي سوف تمتعاد، بتوسع وانتشار من جمعية لنشر الدعاوى النازية: ألا وهو موضوع التطابق والتواطؤ في ما

(1) ولادة الأنثى من ذكر ثانٍ أولاداً بصفات ذكر أول ـ المترجم Télégonie.

بين طائفة اليهود والماركسية: بإعلان «العقيدة اليهودية للماركسية» المساواة، سيطرة العدد، الشك في أهمية العرق، فإنها تصبح ضد «الطبيعة الأزلية وستحمل على زوال كل نظام بشري مقبول». ولذلك يستنتج فوهرر المستقبل قائلاً «بالدفاع عن نفسي ضد اليهودي، فإني أقاتل للدفاع عن عمل الرب»...

استدعاء الطبيعة هو في الواقع نقطة الإنطلاق الملموس للتوسعات المتحذلقة والإرشادية التي عليها يُقيم هتلر العنصرية: «الأشكال المتعددة التي تتلبس بها إرادة العيش وفقاً للطبيعة تخضع لقانون أساسي وانتهاكه شبه متعذر... كل حيوان لا يتزاوج إلا مع أمثاله من النوع عينه: القُرْقُب مع القرقب، الشرشور مع الشرشور، اللقلق مع اللقلق... والذئب مع الذئبة». لهذا الطبيعة هي ضد اختلاط عرق متفوق بعرق دوني. تهجين الأعراق هو خطيئة «ضد إرادة الأزلي، خالقنا». أما الفكرة التي تقول بأن خصوصية الإنسان تتلخص في التغلب على الطبيعة، هي من ثمّ «اعتراض يهودي خاص وهزلي بقدْر ما هو غبي». فالشعوب التي تقوم بالتهجين تُهزم أو ستُهزم وتزول من خريطة الأمم؛ وليس في ذلك مظلمة، لكن إعادة الحق إلى نصابه، على اعتبار أن الخطيئة ضد الدم والعرق هي الخطيئة الأصلية لهذا العالم وعلامة على نهاية البشرية التي تأخذ بها». هنا سيظهر اليهودي نظير «الآلة

الشيطانية»، والذي يحط من نقاء العرق الآري، وهو خميرة الفساد المادي أو الأخلاقي: «الشاب اليهودي، ذو الشعر الأسود، يراقب لساعات، وبوجه منوّر بفرح شيطاني، الفتاة غير الواعية للخطر... كما هو يُفسد بانتظام النساء والفتيات الشابات، وهو لا يخاف من أن يهدِّم، وبنسب كبيرة، الحواجز التي يضعها الدم بين الشعوب الأخرى. اليهود هم الذين أتوا ولا يزالوا يأتون بالعبيد إلى نهر الرين، مسلحين دوماً بالفكرة السرية نفسها والهدف الواضح: تدمير هذا العرق الأبيض الذي يكرهون، بواسطة الانحطاط الذي يتأتى عن التهجين». فالتواطؤ وتوافق المصالح القائمان بين اليهود والعرق الأسود من أجل إفساد وهلاك القارة الأوروبية التعيسة هي قضية تكراراً ما تستعاد، هنا في موضع آخر فرنسا التي هي المسؤولة الكبيرة: «هذا الشعب، الذي انحط بزيادة إلى مستوى العبيد، يعرّض وجود العرق الأبيض في أوروبا خفية للخطر، بالمساندة التي يمنحها لليهود، كيما يبلغوا هدفهم في السيطرة على العالم».

إذا كان اليهودي هو العدو، للفكر الهتلري، فالأسود حقاً هو الدوني، والمقطع التالي يكشف النقاب، وبشكل نموذجي لا مثيل له، عن فكر محض عرقي يُعبر عنه بمنتهى اللاوعي، ولا نجرؤ على القول بمنتهى البراءة، بحيث يبدو لنا من المفيد الاستشهاد به بشكل كامل.

«إلى أي درجة ستبقى الإنسانية سالكة طريق الخطأ؟ هذا ما يبرهن عليه المثال التالي... من وقت إلى آخر، تضع الجرائد المصورة تحت أعين بورجوازيينا الألمان الطيبين صورة أسود الذي، في هذا المكان أو ذاك، صار محامياً، أستاذاً أو قِساً أو حتى صوْتاً بين الأعلى والأسفل ممسكاً، قائماً بالأدوار الأولى أو ببعض شيء من هذا النوع. ما دام يستحسن بورجوازيونا البلهاء يعجبون بالنتائج المدهشة لهذا الترويض وهم مقتنعون بأن علم التربية المعاصرة يحترم النتائج الحاصلة، فاليهودي، المحتال، يكتشف في ذلك برهاناً جديداً يدعّم النظرية التي يريد غرزها في عقول الشعوب التي تعلنُ المساواة بين الشعوب. هذه البورجوازية السائرة في طريق الانحطاط لا تشعر بأدنى سوء ظن بالخطيئة التي ترتكب بذلك ضد العقل؛ إذ إنه جنون إجرامي ترويض فرد، هو في الأصل نصف فرد، بحيث يُقبل كمحام، في حين أن ملايين من ممثلي العرق الأكثر تمدناً عليها أن تعيش في ضنك في أوضاع غير جديرة بها. إنها لخطيئة ضد إرادة الرب ترك البشر الأكثر موهبة من غيرهم بكثير يختنقون بمئات الألوف في مستنقع البروليتاريا الحالي، في حين يُروّض الهوتنتون Les Hottentots[1] و«الكافريس Cafres من أجل ممارسة المهن الحرة. وذلك لأنّ الأمر يتعلق هنا

(1) شعب جنوبي إفريقي ذو بشرة ضاربة إلى الصفرة ـ المترجم.

بترويض على غرار ترويض جعيد[1]. وليس الأخذ بـ «ثقافة» علمية. إذا ما كرّسنا الجهود عينها والاعتناء عينه إلى الأعراق الموهوبة الذكاء، لا يصعب على مَنْ هو من ممثلين أن يكون أقدر ألف مرة على إحراز نتائج مماثلة».

كل ذلك سيحمل بكل تأكيد الدولة العنصرية على القيام ببعض الواجبات. فالأمر يتعلق بإعادة الاعتبار إلى الزواج؛ لأجل ذلك، من الصواب إخراجه من «المهانة التي وصل إليها من جراء الخيانة المستمرة للعرق وإعادة القدسية إلى مؤسسة معدة لخلق أفراد على صورة الرب وليس مِسخٍ هي في مكانة وسطية بين الإنسان والقرد». يجب، بناءً عليه، الحرص على نقاوة الدم (وهنا، هل ثمة حاجة إلى القول، بأن هذه العبارة هي مأخوذة بتقبلها الشعبي كمجموع عوامل وراثية وليس بمعناها البيولوجي كنسيج دموي). ولذلك فالتعقيم للأفراد المرضى أو المصابين بعاهات سيؤدي، في إطار خطة لتحسين النسل، موجهة إلى تجويد العرق. لحسن الحظ، أن لا يوجد فقط إلا هذا المظهر السلبي والحزين للصراع ضد المنحطين، توجد أيضاً المهمة المُحمِّسة والمليئة بالأمل من أجل بناء دولة عنصرية! حيث تتطور عبادة الجسم والنشاطات الرياضية: لو لم يكن الجمال الجسماني في أيامنا هذه هبط إلى المرتبة الدنيا بفعل تغيّرات الموضة،

(1) كلب مجعد الوبر وطويلة ـ المترجم.

«مئات ألوف الفتيات الشابات ما كانت لتُغرى من قبل يهود هجناء مثيرين للإشمئزاز، وذوي سيقان معوجة». هذا الجمال الجسماني، على غرار التشريف[1] الخُلُق، هو من الأشياء التي بمقدور الإنسان الحصول عليها بالانتصار على ذاته، ونتنسم به هنا تفاؤل شمبرلين: «البشر لا يعودوا يتملقون عندها، عبر تربية الحيوانات، بتحسين أنواع الكلاب والخيل أو السِّنُّوريات؛ بل يعملون على تحسين النوع البشري». وهذا أمر صحيح لدرجة «الدولة التي تهتم بعناية قصوى، في مرحلة تدنيس الأعراق، في الحفاظ على أفضل عناصرها لا بد أن تصبح ذات يوم سيدة العالم». هذه هي الجملة ما قبل الأخيرة من «كفاحي».

II - روزنبرغ وخرافة القرن العشرين

ألفرد روزنبرغ هو من البلطيق من أصل إستوني، وُلد مواطناً روسياً في عام 1893، وأصبح على غرار شمبرلين، ألمانياً؛ ناضل إلى جانب هتلر في ميونيخ وشارك في فتن عام 1923. انتُخب نائباً في الريخستاغ في عام 1930، ونشر في السنة نفسها عمله الرئيس Der Mythus des Zwanzigsten Jahrhunderts (خرافة القرن العشرين).

في عام 1941 عُيّن وزير الرايخ للأراضي المحتلة في

(1) الارتقاء إلى مرتبة الأشراف - المترجم.

الشرق. حُكم عليه بالإعدام وقت محاكمات نورمبرغ وشُنق في هذه المدينة في 16 تشرين الأول 1946. مع أنّ زورنبرغ غالباً ما اعتُبر نظير الإيديولوجي الرسمي للحزب، فإن «خرافة القرن العشرين» التي وضعها لم تثر عند هتلر سوى بعض الحماس: هذا الأخير اعترف بأن قراءته لها كانت سطحية، وأنه وجدها عويصة، وذكر بلذة لا تخلو من الخبث أنّ إدانته للكاردينال فولهابر Faulhaber وللكنيسة الكاثوليكية هي التي أسرعت وبشكل خاص في مبيعها.

قضية العرق ونقاوة الدم تسود المؤلَّف المذكور، لكنّ هذا مقدّم بشكل أكثر تماسكاً وانتظاماً من مؤلف هتلر، الذي له هيئة شُيء من كيس السفر، كل ما هو شمالي (هو يفضل هذه العبارة على آري) هو ذو قيمة بالنسبة له: بالمقابل توجد «فوضى الأعراق» الذي تجد تكاملها الأفضل في اليهودي المُجَلَّر. كان روزنبرغ من جهة أكثر وأشد عداءً للكاثوليكية والمسيحية من هتلر، ومن جهة أخرى، هاجم كل ما هو عالمي: الماسون ـ الأحرار، الجزويت، الاشتراكيين، الماركسيين، الذين اتهمهم بأنهم أرادوا السيطرة على العرق الألماني وروحه.

انكبَّ روزنبرغ، قبل كل شيء، على دراسة التاريخ من وجهة نظر عرقية (مرة وبزيادة بعد غوبينو وشمبرلين): كان يبغي استنباط القيمة المتفوقة للعرق وإخضاع سائر القيم لها.

هو التاريخ العالمي الذي سيسمح للإنسان بأن يعاد إلى

الصف الأمامي، الذي هو صفه، مفهوم العرق. وفرضية وجود بحر الظلمات «اطلنتيدي» بمثابة مركزٌ شمالي للخَلْق، والقبول بها، جَعل منها «مركز الانتشار على الأرض بكاملها للعرق الأبيض ذي العيون الزرق والذين، بفعل عدة موجات كبيرة، حدد الوجه الروحاني للعالم». قبائل الهيللين الشمالية استسلمت للفساد والشر على أثر انتصار الديمقراطية: «فأصبح البرابرة الغرباء أثينيين مثلما أصبح فيما بعد اليهود الشرقيون ألمان». في موضع آخر، سقراط لم يكن يونانياً، وكان «الإشتراكي الديمقراطي العالمي لذلك الوقت»، لقد وضع العقل في مقابل الطبيعة، وأعلن عن إنسانية مجردة، وتبشيره بالعقلاني والخير كوَّن «بالموازاة مع إفساد العرق والروح اليونانية»، مما أدَّى إلى الـ غرايكولي Graeculi المحتقرين في العصر الوسيط المتأخر من الأمبراطورية. قدامى الرومان كانوا جرماناً حقيقيين، لكنّ رعاع الرومان «فوضى الشعوب» أفسدا بسرعة شديدة هذه القيم للعرق المتفوق، سيما أن المسيحية جلبت مع مذهب الخطيئة الأصلية ونظرية العفو، مفاهيم مناقضة كلياً للأفكار العنصرية.

التاريخ الذي رواه روزنبرغ عن أوروبا ينتهي بالنسبة لفرنسا بالباقة التالية: «مناطق بكاملها في الجنوب هي في مصاف الميتة وهي تمتص مواطني إفريقيا مثلما كان عليه الوضع في روما. طولون Toulon ومرسيليا لا تتوقفان عن الإرسال الى البلاد الجراثيم الجديدة للانحطاط. حول

كاتدرائية نوتردام في باريس يتدفق سكان يتفسخون أكثر وأكثر. العبيد والخلاسيون يدورون متأبطي أذرع النساء البيض، حي جديد خاص باليهود ينشأ مع كنس جديدة. حديثو نعمة خلاسيون يثيرون الاشمئزاز، يسممون عرق النساء اللواتي لازلن بعدُ جميلات، وقد جذبتهن باريس من جميع أنحاء فرنسا».

الشر كل الشر هو في العمومية: «تحت ستار التيوقراطية[1] الرومانية أو الإنسانية الماسونية». ليس في الواقع إحدى المظاهر الأقل غرابة، في فكر روزنبرغ سوى التواطؤ القائم بين الكنيسة الرومانية، الماسونية، اليهودية والماركسية، أنّ كلاً منها هو نفس العدو ذي المكايد لتفوق العرق الجرماني. فالصيغة الكاثوليكية: «قطيع واحد وراع واحد» هي وحدها إعلان حرب على العقل الألماني. قيم التواضع والتخلي والتضحية للمسيحية سوف تستعاد وتعمم من قبل الماسونية؛ هذه الأخيرة بالاتفاق المتين مع الكنيسة، رغماً عن مظاهر العداء، كانت تنشر بدافع الإحسان والإنسانية «عمومية من دون حدود»؛ «الخطب الإنسانية» ومذهب المساواة للبشر قد أنزلا بالحضارة شراً كبيراً: «بفضلها، ما من يهودي، زنجي أو خلاسي إلاّ واستطاع أن يصبح مواطناً في دولة أوروبية... بفضل الإنسانية، أصبح

(1) حكومة يشرف عليها رجال الدين، تدّعي الحكم باسم الله ـ المترجم.

بمقدور اليهود والزنوج الاقتران بالنساء من العرق الشمالي». وفي ذلك إحدى نتائج الجمالية الغربية لعصر إنساني تمثّل خطأه الكبير في البحث عن الإنسان بشكل عام وليس كيوناني، أو يهودي أو جرماني أو صيني. في نهاية الحساب نجد مجدداً التواطؤ اليهودي ـ الزنجي ـ الفرنسي الذي أخبر عنه هتلر بقوله: «السياسة الفرنسية وضعت العرق الأسود على قدم المساواة العرق الأبيض، كما أن فرنسا قامت منذ أربعين سنة بمبادرة تحرير اليهود، فهي اليوم المسؤول الأول عن وصمة العار التي أنزلها السود بأوروبا، وإذا ما استمر هذا الأمر لا يعود بالامكان تقريباً اعتبارها دولة أوروبية، ولكن أحرى ملحقاً لإفريقيا محكوماً من قبل اليهود».

يتلخص الخير بالطبع، في كل ما يُصنع من أجل تفتح العرق الشمالي. المرأة، المخصص لها المقاطع الطويلة المبغضة للنساء، تبقى مع ذلك حارسة الحياة، وبالتالي يناط بها المهمة الرئيسة من أجل الحفاظ على نقاوة العرق: «إذا ما أصررنا على اعتبار السوري من كورفوستندام Kurfustendamm نظير مواطن وإنسان يمكن الزواج منه»... عندها نذهب إلى انحطاط عميم. يجب تنقية العرق وتحسينه: الرسالة البابوية الـ 1931 حول الزواج المسيحي، التي بمقتضاها غير مسموح المساس بتمام الأجسام البشرية القادرة على الزواج يجب أن ترفض بشدة من قبل كل ألماني سوي. التعقيم الجراحي للمرضى والمجرمين المعاودين، منع

الزواج بين الألمان واليهود أو حتى أبسط العلاقات الجنسية، كل هذا هو جزء من برنامج الحد الأدنى المرغوب، لأن كل ذلك مجرد تدابير إحترازية. يجب أيضاً خلق ديانة جديدة: فالقديمة، ديانة الكنيسة السورية ـ اليهودية ـ الشرقية تقطع «الطريق أمام القوى العضوية للشعوب ذات الدم الشمالي»، لأنه مهما بدت غريبة وغير متوقعة أفكار روزنبرغ حول الدين فهي على ارتباط وثيق بالعنصرية: لذلك يجب «الإلغاء، مرة وإلى الأبد، لما يسمى بالعهد القديم ككتاب ديني»؛ هذه هي الوسيلة الوحيدة لتعطيل المحاولة القديمة لتهويد الألمان. من المناسب إعادة النظر في الأناجيل والاحتفاظ من المسيح بصورة الصراع والانتصار؛ مثلما يستبدل المصلوب، رمز الضعف والعذاب برموز أخرى، كذلك الإنجيل لا يمكن أن يكون مذهب الجبن. يجب، بكلمة، تطويع مثال الحب للآخر إلى فكرة الشرف الوطني، وعدم التغاضي عن ان المسيحية هي مدينة بقيمها للخاصية الجرمانية، كما يجب التساؤل دوماً عما إذا ما كانت الأشكال الدينية تقوي البناء العرقي للأمة أم لا.

ها هي العنصرية بكيانها المحض؛ لقد جمعنا العبارات الأكثر مصادمة، وهي التي يمكن أن تثير عجب من يكون قد نسيها أو من هم صغار في السن لأجل معرفتها؛ لنضف هذه العبارات: «الدفاع الذاتي... هو مفتاح «الصليبية» الألمانية ضد اليهودي، الأسود، «السيد»، السوري، والدماء الأخرى

التي لا يؤدي ادخالها سوى الى انحطاط ألمانيا». هذه الجملة هي مستمدة من كتيب مُعَنْوَن «الحرب ضد اليهود»، تحت توقيع رباعي مقلق: هتلر، روزنبرغ، غوبلز وستريشر، صادر بالفرنسية، في باريس، الـ 1938 من قبل «Centre de Documentation et de Propagande».

III ـ التطبيق العملي

بخلاف ما كان يمكن أن يحدث حتى ذلك الحد، الرجال الذين وضعوا هذا الهذيان اللاعقلاني سيصبحون على رأس الدولة. وبالتالي مسؤولياتهم السياسية ستمنحهم الفرصة للانتقال من النظرية إلى التطبيق، من الكلمة إلى الفعل. لا يدخل في مخططنا إعادة العرض المفصل هنا للتطبيق العملي للعنصرية الهتلرية، ولكنْ مجرد استعادة مظاهرها الأساسية لإبراز البرهان كأنه صعبٌ المضي أكثر في الرعب وخصوصاً في الإرادة المنظمة وعن سابق تصميم مُعَدٌ للإبادة العرقية التي تبقى السمة الأكثر تميزاً وهولاً للنظام.

حقاً، المذابح للسكان المدنيين من قبل الجيوش في الريف كانت رهيبة ولا يمكن تبريرها؛ لكن هذه هي ذروة أوقات الحروب التي تعاود الظهور، يا أسفاه، نظير الموكب الذي لا يمكن تجنبه وليس أعمالاً مصممة ببرودة وقد نضجت في زمن طويل. والمذهل في الإبادة العنصرية الهتلرية، هو «وحشية الآلة» في استعادة لعبارة م. روجيه

إيكـور M.Roger Ikor، هـي مثـلمـا كـتب فرانسـوا موريـاك François Mauriac: «المذبحة الأضخم ما يمكن، ومنفذة بأدق ما يمكن، والمدبرة بأحسن ما يمكن: هي مذبحة ادارية علمية، في منتهى الدقة، كما هي المذبحة التي لا يمكن أن ينظمها الا الألمان».

1 ـ التدابير القانونية

من بين القوانين التي نشرت في اليوم عينه، هناك قانون له أهمية خاصة، هو قانون 14 تموز 1933 المخصص لمنع «ذرية الأشخاص المصابين بالأمراض الوراثية»، النموذج عينه لقيام أمر تحسين النسل: الذي كان يأخذ بتعقيم بعض فئات المرضى، ولو أنه ضد إرادتهم. فكما أن مربي الحيوانات لا يفسح في المجال لتوالد الحيوانات الأدنى من جنس واحد، على هذا النحو الرايخ الثالث الألماني كان عليه أن ينتزع حق التوالد من مواطنيه الضعفاء.

كان المقصود بمثل هذا القانون، بالطبع، التطبيق ذا الطبيعة العنصرية. إنها ضد الناس الملونين. الجنود السود الذين شكلوا جزءاً من أفواج الاحتلال الفرنسية في الضفة الشمالية لنهر الرين في عامي 1919 و1920، خلّفوا وراءهم عدداً من الأطفال الطبيعيين، نتاج العلاقات مع النساء الألمانيات (وقد فعل رفقاؤهم البيض الشيء نفسه، ولكن ثمار هذه الأخوة لم يكن من السهل التعرف عليها.

في 8 شباط 1934 ظهرت مقالة بعنوان «إرث العار الأسود» في «الدوتش زيتونغ» Deutche Zeitung هانس شرودر طالب فيها بتعقيم أبناء الزنا الخلاسيين. بدءاً من 1933، أحصت السلطات 145 طفلاً من هذا المثال الأصلي وكان قد طرح موضوع تعقيمهم، في آذار 1935 درست المسألة لجنة مكوّنة مما يناهز 20 شخصاً درست المسألة واستخدمت الوسائل الناجعة، فقد أمر الفوهرر في 18 نيسان 1937 وزير الداخلية أن يقوم بتعقيم «أولاد الزنا السود». أفصحت الويلهلم ستراسيه La Wilhelm Strasse عن ترددها وفزعها، محاولة البرهان عن عدم قانونية التدبير، ولكن هتلر بعينه في 7 أيار، أعطى أمراً مبرماً إلى وزير الداخلية «بالتنفيذ الفوري لتعليماته السابقة في 18 نيسان وإبلاغه المصادقة عليها»(1).

بخصوص اليهود، بدون ذكر المقاطعة الرسمية التي نظمت في الأول من نيسان 1933، فإن شريعة حول إصلاح الوظيفة العامة أتت، في 7 نيسان، لتُستبعد من الإدارة العناصر غير المرغوب فيها؛ طبعاً، غير الآريين كانوا في الصفوف الأولى: هذا هو التدبير الأول القانوني العرقي من الرايخ الثالث. في الشهر نفسه، نصوص أخرى طردت اليهود من المحاماة، استبعدتهم عملياً من الطب، وحددت

(1) Eliahu Ben Elissar, La diplomatie en III Reich et les Juifs, Paris 1969, p. 45...

عدد التلامذة الثانويين والطلاب الجامعيين بالنسبة للسكان اليهود في ألمانيا.

كل ذلك لم يكن ليشكل في غضون ذلك سوى التدابير الأولى لسياسة عرقية بشكل مطلق وقد تأكدت بتشريع نورمبرغ المحزن الشهير. الريخستاغ اجتمع بصورة استثنائية فـي هـذه الـمـديـنـة لـمـنـاسـبـة دورة الـ NSDAP، (Nationalsorialistische Deutsche Arbeiterpartei) حـزب العمال الإشتراكي القومي الألماني)، في أيلول 1935، صوّت على قانون مواطنية الرايخ؛ وضع هذا النص تمييزاً أساسياً بين الرعايا خالصي النسبة ومواطني الرايخ: وحدهم هؤلاء الأخيرون يتمتعون بكامل الحقوق السياسية. لم يكن ذلك سوى الاستعادة التشريعية للنقطة الرابعة من برنامج الحزب النازي في شباط 1920: «كيما يكون الانسان مواطناً، يجب أن يكون من الدم الألماني، والديانة ليست بالأمر الهام. ما من أحدٍ يهودي بناءً عليه يستطيع أن يكون مواطناً». اليوم عينه، قانون ثانٍ: «من أجل حماية الدم والعرق الألمانيين»، منه استخلصت النتائج الملموسة في الموضوع، منه مُنعت الزيجات وحتى العلاقات خارج الحياة الزوجية بين اليهود والمواطنين الألمان. تبدو هنا المراسيم التنظيمية بمثابة أمثلة عن «الهذيان الجيني» من قبل من اعتُبروا تقنيي العرق: الألمان لا يتوالدون إلا من الألمان؛ وإذا ما كان هناك قليل من «الدم اليهودي» في الأسلاف البعيدين، هو سيغرق في

موج «الدم الألماني». القانون نفسه للعام 1935 والذي يمنع اليهود من استخدام نساء مياومة للخدمة دون سن الخامسة والأربعين (المادة الثالثة)، وذات دم ألماني، ومن رفع العلم الوطني للرايخ (المادة الرابعة)، يعلن مع ذلك أنه «مسموح التزيُّن بالبيارق والستائر في الألوان اليهودية» ويتجاسر أن يضيف: «ممارسة هذا السماح مصون من قبل الدولة».

إذا ما أغرتنا رؤية مثل هذه الحماقات بالابتسام، فهذه ردّة فعل سرعان ما تتوقف، لأن «المهرج لا يضحك» بمقتضى العنوان الشديد الإيحاء للسيد دافيد روسيه M.David Rosset. فالجريمة ضد العرق المفروض عليها غرامة كبيرة، أصبحت بعد 1939 تُعاقب بالموت. الصور المتنوعة للحياة الاجتماعية كانت موضع اعتبار بحسب أكثر من 250 تدبيراً عنصرياً معادياً لليهود قبل 1939؛ وكان ينظر إلى أصغر التفاصيل بدقة بيروقراطية مرعبة؛ هذا لأن، كل الذي يلامس اليهودي، من قريب أو بعيد، يُعتبر كأنه ملوث، وقد نصّ محظورات حقيقية. بعض الطرقات والأماكن العامة ممنوعة على اليهود؛ كما صدرت عدة تنظيمات بلدية تمنعهم من إظهار أبقارهم أو ماعزهم لثور أو تيس البلدية!... وقد وجدت مدوّنة في أرشيف وزارة العدل النازية ومؤرخة في نيسان 1943 يصرّح بأنها تعزم على ملاحقة اليهودية، التي بعد ولادة طفلها، باعت حليب أمومتها إلى طبيب أطفال وهي خافية حقيقة عرقها؛ ففي ذلك احتيال «لأن حليب اليهودية

ليس بالوسع اعتباره كأنه غذاء للأطفال الألمان».

وقد أعدّت الكريستال ناشت (ليلة البلّور) Kristallnacht المشهورة في تشرين الثاني 1938 ببراعة من قبل غوبلا ومعاونيه؛ ربما لم ينتج عنها سوى 35 قتيلاً؛ لكنها شكّلت إنذار الخطر الأخير الذي يسمح لليهود، إذا ما استطاعوا، مغادرة البلاد التي ستصبح جحيماً بالنسبة لهم. لأنه، على أثر اندلاع الحرب العالمية، لم يعد ثمة حاجة إلى أي قناع، فالنظام الاعتقالي[1] أخذ يعمل بأقصى السرعة كالماكينة الضخمة المصممة للإذلال والإهانة والتحقير إذا أمكن، وأخيراً القضاء على الأعراق الدونية بتحويلها إلى قليل من الدخان والرماد الذي يشحن ليفرغ في المقبرة...

2 ـ عملية الإبادة

لم يعد هناك من شيء كبير يقال أمام الإبادة المنظمة لعائلة بشرية قام بها الرايخ الثالث النازي، لأنّ كل حكم، قيمة، كل إدانة، كل صفة مشينة أيّاً كانت، يبقى دون الحقيقة. لذلك سنكتفي بذكر ما يلي:

أ ـ البحث المنظم عن اليهود ـ بغرض إبعادهم، لم يعد سوى التطبيق «للحل النهائي» المشهور المتخذ في برلين، في 20 كانون الثاني 1942، وقت انعقاد مؤتمر وانسي

(1) نظام معسكرات الاعتقال ـ المترجم.

Wannsee. ولذلك بقيت مشهورة بأساها الحملة المسماة بـ فيل ديف Vél'd'Hiv في باريس في 16 تموز 1942. حدثت الإبعادات بالقطارات ولم ينج حتى الأطفال من التعذيب: 4000 منهم من سنتين إلى 12 سنة، أُبعدوا إلى درانسي Drancy بدون ذويهم. حينما احتجّ مطران تولوز المونسنيور ساليبج Saliège في رسالة رعوية في 30 آب، رد عليه روبير براسيللاخ Robert Brasillach، بتهكم وحشي قائلاً بأنه حتى هو لا يوافق على هذا التفريق «لأنه يجب الافتراق عن اليهود بالجملة وعدم الاحتفاظ بالصغار» («أنا في كل مكان»، 25 أيلول 1942). وكان يوجد في دراسني، في أيار 1944، طفل يهودي منقوش تحت ذِكره: «ذكر، 18 شهراً، إرهابي».

ب ـ **الإبادة المنظمة** ـ بدأت عند الوصول إلى ألمانيا بانتخاب لا رحمة فيه، على أثر النزول من القطار: الرجال المحسوبون أصحاءً وقادرين على العمل سيعرفون حياة الجحيم في معسكرات الاعتقال؛ النساء والأطفال تحت 15 عاماً والمرضى والمسنون، يساقون في الحال إلى غرف الغاز: في البدء كان يرمى بالجثث في قبور مشتركة، فيما بَعْدُ صاروا يحرقون على المحطبات، أخيراً صار يدفع بهم الى محرقة الجثث. تصريح آمر المعسكر رودولف هس Rudolf Hoess: «وصل العدد الأقصى للمقتولين بالغاز والمحروقين في غضون أربع وعشرين ساعة إلى ما يناهز 9000 في كل إنشاءات «أوسشويتز Auschwitz» (والاستعمال

الجديد لغاز «الزيكلون B» ـ Zyklon B سمح بتسريع رهيب لهذا النوع من العمليات).

ج ـ **المجموعات المدعية الطبية** ـ بدأت من قبل بعض «الأطباء» (؟؟) الألمان مثل الدكتور هيرت Dr. Hirt الذي كان يقيم في معهد الطب في ستراسبورغ والذي كان يتذمر من النقص في جماجم اليهود، قال: «الحرب في الشرق تقدم لنا الآن المناسبة لسد هذه الثغرة. فيما يختص بالمفوضين اليهود البولشفيك الذين تظهر عليهم العلامات المثيرة الاشمئزاز، وهي السمة المميزة لبشرية منحطة، فبإمكاننا، إذا ما حصلنا على جماجمهم، الوصول إلى وثيقة علمية ملموسة». بعد عدد من عمليات قياس أنثروبولوجية على السجين المقبوض عليه حياً، يقتل، ثم ينزع رأسه ويرسل إلى ستراسبورغ. . . يضيف «يجب ألاّ يفسد الرأس، المندوب المرمل يفصل الرأس عن الجسد ويضعه في صندوق من التنك المقفل بإحكام ويرسله إلى حيث يجب. هذه الصناديق يجب أن تحوي سائلاً يُبقي على الرؤوس في حالة جيدة. بمساعدة الصور والقياسات وأخيراً الجمجمة بحد ذاتها، يمكن القيام وبصورة مفيدة بالأبحاث التشريحية المقارنة، والأبحاث العرقية، كما تلك العائدة إلى التغيرات المرضية لشكل الجمجمة وشكل وحجم الدماغ».

ولكن سرعان ما غدت الجماجم غير كافية لهيرت الذي أخذ يطالب بهياكل بكاملها وليس فقط للمفوضين اليهود ـ

البولشفيك. الجثث المُتسلَّمة كانت نحيلة جداً ومعسكر أوستشوتيز لم يكن مجهزاً ليعدّ الهياكل كما ينبغي، فقد أُحضِر 87 يهودياً أحياء أُخضعوا لقياسات وتجارب تعقيم؛ في آب 1943 كانوا في الغاز بواسطة الـ .S.S و«تحت الحراسة الطبية...». 17 جثة وجدت وقت التحرير في معهد ستراسبورغ للتشريح، مع عدد من القطع المشرحة. يجب التدقيق في أن هذا النوع من التجارب لم يكن فقط في ناتزفيلر ستروتهوف Natzwiller-Struthof، لكن في معسكرات أخرى كثيرة العدد والتي لم تمارس على اليهود فقط لكن أيضاً على آريين أنزلتهم حالتهم الصحية الضعيفة، أو مواقفهم السياسية المعادية، أو انتماءاتهم، إلى مجموعة مكروهة إلى مصاف الحيوانات (على هذا المنوال البولونيات التعيسات «أرانب» من رافنسبروك Ravensbruck، والحُنْف[1] من لودز Lodz، وقوائم وأقزام الدكتور منجل D.Mengele في أوسشويتز بيركينو Auschwitz-Birkenau).

من المناسب أخيراً الاشارة إلى المؤسسة الغربية الى حد ما: ينبوع الحياة Lebensborn ونشاط المكتب الأعلى للعرق والسكان. وكان الهدف المنشود هو قيام وتقوية العرق الآري الصافي الحقيقي؛ وقد استعملت وسيلتان لهذه الغاية: اما استخدام منتجين منتقين بصرامة، وإما خطف أطفال صغار في

(1) مشوهي الأيدي والأرجل بالإعوجاج ـ المترجم.

البلاد المحتلة يحملون سمات العرق الجرماني المتعذر الاعتراض عليها.

د ـ **الغجر** ـ كانوا موضوع مذكرة طالبت في 1938 «بحلٍ إشتراكي ـ وطني» لمسألة **الغجر** بشكل خاص، لأن «للغجر تركة مثقلة مشهورة بأنهم مجرمون معتادون على الإجرام والذين يشكلون الطفيليين في قلب شعبنا، والذين لا يسعهم فيه إلاّ التسبب في الأضرار الفادحة، مُعرضين للخطر الكبير صحة دم الفلاحين وطريقة حياتهم». وعلى الأثر أرسل الغجر إلى معسكرات الاعتقال. منذ تلك اللحظة في القرم، في إقليم من سيمفروبول Simferopol، قُتل ما يناهز 800 غجري مساء عيد الميلاد 1941؛ والأوستاشي Les Oustachis من پاڤيليتش Pavelitch قضوا على 28000 غجري في كرواتيا. بحسب أقوال رودولف هس، فإن هيملر Himmler كان يريد بأي ثمن الحفاظ على أهم قبيلتين غجريتين اللتين اعتبرهما نظير الأحفاد المباشرين للعرق الهندو ـ جرماني الأصلي: جعلهما تفيدان من قانون «الحفاظ على الآثار التاريخية» ووطدهما في نوع من «المفردة» حيث يمكن رصدهما «علمياً» في 1942، أرسلتا إلى أوسشويتز بيركينو الذي حوى 16000 من أفرادهما. وفي ربيع 1943، وفي ليلة واحدة من 31 تموز إلى 1 آب 1944، 4000 غجري كانوا في غرفة الغاز.

آخرون كانوا قد أُرسلوا من أوسشويتز إلى ستروتوف Struthof لاستخدامهم في تجارب التيفوس أو في مقاومة

الغاز. مع أن صعوبات التقدير الرقمي كانت كبيرة بشكل خاص، م. بولياكوف M.Poliakov أشار إلى رقماً لا أقل من 200 000 ضحية. يجب التدقيق في أن «كنه الغجر» لا يسمح ببناء أسطورة شبيهة بأسطورة اليهود وذلك يعود الى سمة «الشعب اللااجتماعي» الذي سلم أفراده الى الإبادة العرقية. ويشكل الغجر إلى جانب اليهود، المثل الوحيد لإبادة ضخمة أريد لها أن تكون شاملة.

هـ ـ عدد الضحايا ـ كان كبيراً حتى احتيج إلى كلمة مولّدة «الإبادة الجماعية» الجديدة المحزنة. وقد استعملت عدة طرق للحساب. لاحظ م. ليتشنسكي M.Letchinsky أن نسبة من مات من الجماعة اليهودية الأوروبية هي كثيرة وأشد إرتفاعاً من تلك التي للأمم التي ضربتها الحرب.

إذا ما قمنا بتبويب الخسارات اليهوية بالنسبة لمجموع السكان اليهود في كل بلد أوروبي نصل إلى 5978000 مفقود من أصل 8301000، أي ما نسبته 72% من الخسائر.

لا ريب في أن حادثة أدولف إيكمان Adolf Eichmann هي المصدر لرقم التقدير الإجمالي البالغ، ملايين يهودي أبيدوا من قبل النازي، وإيكمان هو الذي أكد صديقه ويسليسيني Wisliceny أمام المحكمة الدولية في تورنبرغ بأنه كان صرّح «أنه سيقفز وهو يضحك في قبره، على اعتبار أن وخز الضمير بـ 6 ملايين ضحية سيكون بالنسبة له مصدراً

للسرور العجيب»؛ سوف يستعيد الحكم هذه المعطيات لكن مثل هذا الرقم المسند بهذا الشكل غير السليم يحتمل أن يكون موضع ريب. م. بولياكوف، باستعماله تقرير التفتيش الإحصائي لدى الـ SS الذي كان يضع اللمسة الأخيرة «للحل النهائي» في نهاية عام 1942، يدل الى الرقم 4 ملايين يهودي قد أبيدوا حتى ذلك التاريخ؛ اليهود الهنغاريون، غيتوات بولونيا كوّنوا بَعْدُ 700000 ضحية جديدة، واستمرت مطاردة اليهود أيضاً لمدة سنتين في كل أوروبا.

نمط آخر للحساب يقضي بجمع الأرقام الدنيا في أماكن الإبادة. الفرضية الأقرب إلى الواقع تدور حول رقم 6 ملايين «الكلاسيكي» المذكور قبلاً.

د ـ **قمة الرعب** ـ لسنا هنا تجاه وجود عداء فرد للسامية (مهما كانت تستوجب العقاب)، إنما تجاه وجود عداء للثمار المسمومة للجنون العنصري، بناء للتفكير بنتائج الفروقات بين هذا وذاك العدد. كتب لويس فرديناند سيلين Louis-Ferdinand Géline منذ 1938: «إثنان يخرجان من الباب، 36000 يدخلون من النافذة. وأنصاف اليهود؟ لماذا لا نقول أنصاف ـ الميكروبات؟ يجب أن نعرف ماذا تريدون: هل تريدون أن تتخلصوا من اليهود أو تريدون أن يبقوا؟ إذا أردتم حقاً التخلص من اليهود، فليس هناك 36000 وسيلة، 36000 تكشيرة! هناك تشنجات الأعصاب! العنصرية! لا يخيف اليهود إلاّ العنصرية. إنهم يسخرون من معاداة السامية. يستطيعون

دوماً تدبر الأمر مع معاداة السامية. الوطنية هنا توجيه الضربة! ومن ثمّ العمادة! العنصرية! العنصرية! العنصرية! وليس برؤوس الشفاه، إنما بملء الفم! كُلّيةً! بلا رحمة! مثل تعقيم باستور الممتاز»[1].

الواقع أن اليهود، كان محكوماً عليهم بشكل حتمي لا رجوع عنه. إنهم أناس لم يستطيعوا التحرر من وضعهم كيهود، على اعتبار أنه في مستقبل العنصري، فإن خصائص اليهودي[2] يتعذر أيضاً محوها مثل الزنُوجية[3] (يبقى أن نعرف كيف نحدد اليهودي: هنا أيضاً شهادات عمادة غير حقيقية سمحت في فرنسا أن تنقذ العديد من المضطَهَدين)، وهذا ما نجده مؤثراً في إلياهو بن أليسار حينما دقّق: «الفرق العميق بين تشريع معاداة السامية التقليدي، الذي تتوقف ممارسته ضد اليهودي حالما يرتد هذا والتشريع العرقي لنورمبرغ».

في رأيين مواجهين، لكنْ متعاكسين يشهد على خاصة اللارحمة واللامعقول. وبناءً لدعوة هيملر، فإن العديد من الاعضاء الكبار في NSAP وضباط SS، كانوا يأتون إلى

(1) L'Ecole des cadavres, 1938, p 264.

(2) مجموع الصفات الاجتماعية والنفسية والبيولوجية التي تفرض وجودها في اليهودي ـ المترجم.

(3) وضع الزنوج أو طبيعتهم، مجموع القيم الثقافية الزنجية ـ المترجم.

أوسشوتيز لمعاينة إبادة اليهود، كما يروي رودولف هس آمر المعسكر، يبيّن: «كانوا جميعهم يتأثرون بعمق شديد مما يشاهدون. البعض منهم الذين، قبلاً، كانوا أطروا مع كثير من الحماس هذه الإبادة، كانوا يصابون بالرعب ويلوذون بالصمت بعد مشاهدة هذا «الحل النهائي للمسألة اليهودية». كانوا يسألونني في كل مرة، كيف يستطيع رجالي وأنا تحمل هذا المشهد مديداً». ها هي ردة فعل غير مرتقبة من قبل الضالعين في الجرم. تروي السيدة لاتور Mme Latour، في كتاب مخصص للمقاومة اليهودية في فرنسا الاستقبال المنكر الذي جرى في نيس Nice، جادة دويوشاج Boulevard Dubouchage، في 1943، في لجنة مساعدة اللاجئين، ليهوديَن تعيسين تمكنا من الهرب من جحيم أوسشوتيز؛ حينما تحدثا عن أهوال المعسكر، غرف الغاز، أفران حرق الجثث، والإبادة المنظمة للمبعدين، كلُّ ذلك ظهر إلى مستمعيهما من المقاومين اليهود مع ذلك، بعيد التصديق وعجيب. وهَذَراً حكموا بأن عقلَي هذين المسكينَيْن قد أحلا من محلهما حتى إن أحد المستمعين ربّت بتُؤدة على جبهته بالسبّابة، بطريقة ذات مغزى. وتضيف المؤلفة: «الذي رأياه هذان، هذا جحيم، إنه لا يُصدق. ولكن أسألكم من كان بمقدوره أن يصدق ذلك؟». هذه ردة فعل مذهلة اليوم من قبل أصدقاء الضحايا. . .

مثل عطش للإبادة الذي بدا أنّ ما من شيء يستطيع

إيقافه، ما لم يتوار آخر يهودي، يأذن بإدراك أفكار السمة العمياء والآلية لعملية إلغاء العنصرية التي عملت بدون عقل أو بالأحرى لأجل شيءٍ واحد: «اليهودية». كلمة الإهداء التي وضعها جول إسحاق Jule Isaac في 1948 على كتابه «عيسى وإسرائيل» Jèsus et Israël تختصر الكل: «إلى زوجتي، وإلى إبنتي الشهيدتين، اللذينن قتلهما الألمان، مقتولتين لمجرد أنهما تدعيان إسحاق».

الفصل الخامس

المظاهر المعاصرة للعنصرية

I ـ الولايات المتحدة الأميركية

إذا ما ظهر ڤاشيه دي لابوج رسولاً طيباً جديراً بأوروبا، فإن نجاحاً مماثلاً سوف يتحقق، ما وراء الأطلسي، بنبوءة و. ي دوبوا W.E. Dubois الذي كتب: «إن المسألة الرئيسية للقرن العشرين هي مسألة فصل اللون». ومن أكبر المفارقات أن تطرح مسألة العنصرية بهذه الحدة في البلد الذي يطمح إلى أن يكون الأكثر ديمقراطية في العالم وهو بالفعل كذلك. ويبدو أن مسألة العنصرية هي بمثابة إرث الرق الذي لم يؤد إلغاؤه إلى خلق الأخوة من السكان البيض والسود، إذ سرعان ما تلاه الفصل العنصري الرسمي الذي سيؤدي إلى حالة قانونية واقعية سيُعمل للخروج منها.

1 ـ إلغاء الرق ونتائجه

غداة الاستقلال كانت الولايات المتحدة محتفظة بالرق

نظير إرث في وسط إرث من الهيمنة البريطانية. لم يدر بذهن واضعي دستور عام 1787، ان عليهم أن يلغوه ظناً منهم أنه سيزول رويداً رويداً بمضيّ الزمن. هذا التفاؤل الجميل لن تتوانى الأحداث عن تكذيبه؛ عوضاً من أن يتراجع الرق سوف يزداد: في ولايات الجنوب، فإن زراعة القطن الأحادية التي ازداد إنتاجها بسرعة تطلبت يداً عاملة وافرة وقادرة على تقديم الجهود الجسمانية الكبيرة في مُناخ حار ورطب، الأمر الذي جعل الناس سعداء باعتبار السود صالحين له بشكل خاص (فارتفع عدد الأرقاء من 750000 غداة الاستقلال إلى مليونين في 1830 و4 ملايين في 1860). بدأ شمال البلاد يشعر بالتناقض من جراء التسامح ببقاء مؤسسة اختفت غير محل على أرض تريد قبل كل شيء أن تكون وطن الحرية (حتى إن كان في الشمال وجدت قبلاً، ممارسات للفعل من دون تسميتها). النجاح المنقطع النظير لرواية السيدة هاربيت بيشر ستوو Harriett Beecher-Stowe كوخ العم توم، تشهد الى حد ما، على عدم ارتياح الرأي العام الأميركي حيال هذا الموضوع - الرق. نحن لن نغامر بالحقيقة في القول ان الصراع ضد الرق كان سبباً لحرب الانفصال، لكن لا ينكر أحد أنه كان من أسبابها الرئيسة. ومهما كان الأمر في ذاته، خلال الحرب عينها، حرر لنكولن في عام 1863 الزنوج في الولايات المتنفضة، كما

أن التعديل الثالث عشر للدستور في 1865 أكّد على إلغاء الرق. في السنة التالية، فإن شرعة الحقوق المدنية أعطت الزنوج الحقوق نفسها التي هي للبيض والتعديل الرابع عشر للدستور منح كل شخص مولود أو حاصل على جنسية في الولايات المتحدة صفة «مواطن الولايات المتحدة وفي الولاية التي يقطنها». كان ذلك بالضبط شيء نقيض «حالة درد سكوت» Dred Scott Case، التي بمقتضاها أصدرت المحكمة العليا في 1857 زعْماً بأن الزنجي كونه ليس بمواطن في نظر الدستور، فإن الحكومة الفدرالية لا تملك الحق في أن تمنع الرق بناءً عليه في خط مثبّت. آخر الأمر في 1870، حصلت الموافقة على التعديل الخامس عشر للدستور، والذي قدّر أنّ «حق الانتخاب للمواطنين... لن يُلغَ أو يحدد من قبل الولايات المتحدة أو من قبل ولاية، بحجة العرق أو اللون أو الرق السابق». وقد جرى التصويت على القوانين التطبيقية حتى 1875، وكانت ترمي إلى جعل حق الإنتخاب واقعياً، وذلك بحماية الزنوج من كل محاولة تهديد. هذه المرحلة من الحرية النسبية التي تزامنت مع تجديد البناء ستكون قصيرة المدة للغاية. كنا نظن بأن المسألة قد حُلّت؛ لكن التاريخ وعلم الاجتماع يعلّمان هنا رجل القانون ضرورة التواضع، فأفضل النصوص تبقى حرفاً ميتاً عندما لا يتقبلها الجسم الاجتماعي كقاعدة قانونية. لقد طُردت العنصرية من الباب، لكنها لم تلبث أن

عادت من النافذة، بسبب أن الزنوج، المكروهين والمستخدمين قبلاً بمثابة أرقاء لن يجعلوا أنفسهم، بفعل ضربة عصا سحرية، مقبولين كمساوين للبيض. فردات الفعل «الكوكلوكس كلان» ضد «الكاربيت باغرز»، الجمهوريين البيض الذين أتوا من الشمال للقيام بالتربية السياسية للزنوج، تشهد على العداء الحاد لعمق الجنوب ضد التدابير المتخذة من قبل الحكومة الفدرالية المكروهة. في 1877، عندما استعادت ولايات الجنوب استقلالها الداخلي وظهرت إدارة lily white بيضاء مثل الزنابق وديمقراطية، طُرحت المسألة لمعرفة، كيف، اختفى الرق، وضرورة تنظيم التعايش الذي لا بد منه بين البيض والسود.

2 ـ الفصل العنصري والشطر الأول من القرن العشرين

إذا ما قبلنا بالإستناد إلى أعمال وزدوارد **Woodward**، بأن الفصل العنصري بدأ في وقت متأخر عما نظن عموماً، فالتدابير الأولى التي اتخذت بشأنه تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر أو حتى أوائل القرن العشرين. أكثر من 700000 زنجي كانوا سجلوا على اللوائح الإنتخابية، لكنّ عدداً من التدابير المقيِّدة والعنصرية في شكل نموذجي أتت، بالتواطؤ مع المحكمة العليا، لتجعل ممارسة حق الانتخاب أمراً مستحيلاً: شروط الإقامة، الأمية، الحياة الجيدة والتقاليد، شرط الجد، فهم الدستور... هذه هي بعض المبررات التي

استعملت لاستبعاد أهلية الزنوج للإنتخاب. ففي لويزيانا، هبط عدد الناخبين الزنوج من 130000 في عام 1896 إلى 3000 في 1904.

في هذه الفترة ظهرت قوانين جيم كراو Jim Crow الأولى (جيم كراو، جاك كوربو أو كورنيل مثلت التسميات الشعبية المحقّرة للإشارة إلى الزنجي؛ في فرنسا اللّقب لـ جاك بونوم الساخر Jacques Bonhomme). بالإقتداء بـ ولاية تينيس Tennessee التي صوتت في 1875 على أول قانون أقرّ الفصل العنصري في السكك الحديدية والقطارات، فان كل ولايات الجنوب أخذت بالفصل في السكك الحديدية (اللوحات الإعلانية المكتوب عليها أبيض فقط أو ملون، أبرزت فصلهم، غير أنها لم تكن سوى تجسيدٍ لواقع قائم)؛ مُنعت الإقترانات بين أشخاص من أعراق مختلفة وكذلك العلاقات الجنسية من هذا النوع، والتي غدت موضوع عقوبات متنوعة؛ كما أصبح الفصل في المستشفيات والسجون والمقابر، بموجب النصوص القانونية وكذلك الأمر في استعمال الفنادق، والدخول الى المسارح، المكتبات، حتى المصاعد والكنائس... وقد كان الإحساس بالفصل العنصري على أشدّه فيما يتعلق بالمدارس، فيه يولد ضد الزنوج أهم حجْز لمستقبلهم. وقد تأتى عن ذلك المبدأ المشهور (منفصلين لكن متساوين) الذي وضعته المحكمة العليا في 1896 في قضية بلاسّي ڤ. فيرغوسون Plessy v. Ferguson.

بالاضافة لهذا التميز العنصري كان هناك العنف؛ كثرت حالات «شنق الزنوج»: أكثر من 1300 حالة شنق ما بين 1890 و1901، وفي الأغلب عقب اتهامات كاذبة من نساء بيض ادعين بأنهن كنّ قد اغتُصبن. ذلك أدى بالطبع إلى ردّات فعل حادّة من الزنوج، التي منها الانتفاضات العرقية في نيو أورلينز (1900)، ستاتسبورو (1904)، أطلنطا (1906)، وسبرنغفيلد (1908).

توافق كل ذلك مع بدايات الإمبريالية الأميركية، وما أسماه وودورد «الاستسلام أمام العرقية»، أو الكاتب الزنجي لوغان Logan «النظير»[1]، وقد ترافق بالطبع مع نجاح للأفكار والنظريات العرقية. هذا وفي الفترة التي كانت تنتشر فيها في أوروبا الموضوعات المفضلة عند شمبرلين ولابوج نشرت دار الإنجيل «الزنجي هو حيوان» The Negro, Abeost لأجل جمهور امتثالي[2]. كما تبدى ما يقرب من الوقت نفسه، العرق البيولوجي مع استنتاجات علم مقاييس الجمجمة لـ «ر. ب. بين» R.B.Bean، والظهور لشكل خاص من العنصرية الأميركية بحجة الحفاظ على السكان في القارة الجديدة من الهجرة غير المراقبة؛ كتب ماديسون غرانت Madison Grant مؤلف «عبور العرق العظيم» The Passing

---

(1) نظير النَّمَث ـ المترجم.

(2) Fabre, Les Noirs Américains, Paris 1967, p. 24.

of the Great Pace (1916): «إن اختلاط عرقين يؤدي إلى إنتاج عرق يعود إلى النموذج البدائي الرديء»، وصرّح بضرورة منع الزواج المختلط (أبيض ـ أسود، أبيض ـ هندي، أبيض ـ يهودي).

أولى تجارب صراع الزنوج ضد الفصل العنصري أمكنها أن تكون متجمعة حول ثلاثة أسماء: ب.ت.واشنطن B.T.Washington، وا.دوبوا W.Dubois، م.غارڤي M.Garvey.

ولد بوكر واشنطن (1856 ـ 1915) رقيقاً، إبن أب أبيض وأم زنجية، عصامي، المؤسس الأول لمعهد في توسكيغي Tuskegee، متخصص في التعليم المهني: وقد بدا الأمر قليل الخطر حتى إن البيض هم أنفسهم اطمأنوا كون المشروع لا علاقة له بالسياسة وطابعه مهني: فهذا «المتدرج» كونه افترض تربية جماعية ذات نفس طويل، لم يبدُ مقلقاً.

وقف في وجه هذا المذهب المطمئن وليم دوبوا (1868 ـ 1963) الذي عاب في مؤلفه «روح الشعب الزنجي» على واشنطن برنامجه «إنجيل العمل والمال الذي سيجعل الزنوج ينسون في الظاهر الأهداف النبيلة للحياة»، وقد قامت سياسته على ثلاثة مطالب أساسية: حق التصويت، عدم الفصل، وحدة التعليم. وجمع، في 1905، عند شلالات نياغارا من الجهة الكندية، 29 مثقفاً زنجياً أسسوا حركة نياغارا التي وضع لها دوبوا الإعلان ـ البرنامج الذي لا يترك

شكاً حول تفكيرهم الثوري. كان هناك أيضاً بيض أحرار ساخطون على المشانق التي رفعت في سيرنغفيلد وأرادوا أن يحتفلوا بالذكرى المئوية لميلاد لنكولن فمشوا هؤلاء المثقفين الزنوج بقيادة دوبوا على الالتقاء بهم في نيويورك حيث تأسست الـ .N.A.A.C.P (الجمعية الوطنية لتطوير الشعب الملوّن) التي أصبح دوبوا مدير النشر فيها. . . كان عمل حركة الـ N.A.A.C.P ينصب بشكل جوهري على المستوى القانوني، وهي حظيت بتغيير بعض اجتهادات المحكمة العليا (إبطال شروط الجد، إلغاء إجبار الزنوج على العيش في بعض الأحياء، إلخ.). لكنّ الفصل مع ذلك بقي قائماً واستمر بالانتصار، في حين تحمل السكان السود في الولايات المتحدة جملة أحداث التي كان من طبيعتها تغيير مسألة الزنوج وإعطائها أيضاً مزيداً من الحدة: 1 ـ الهجرة الجماعية نحو الشمال ثم نحو الغرب؛ 2 ـ ظاهرة التمدين المتزايد لدرجة أنه احصي في 1960، 14 مليون أسود في المدن مقابل 5 ملايين في الأرياف؛ 3 ـ أظهرت الحرب العالمية الأولى لـ 100000 زنجي عدم وجود أي تمييز عنصري في فرنسا و«حق التمتع غير المتوقع والواضح بشرب كأس من الجعة بحرية مطلقة على شرفة المقهى عينه الذي يجلس فيه البيض، وبالجلوس في أي مقعد في الترام» (ف. شويل F.Schoell). الفتن العرقية التي جعلت في صيف 1919 في وسط السِلْم «صيفاً أحمر»، حيث شنق أكثر من 80 أسود، منهم عدة جنود في

زنّهم الرسمي، ستجعل التناقض أكثر فظاظة. كان سهلاً وضع هذا العمل على تضادٍ مع حمل السلاح بطلب من ولسون «من أجل إنقاذ العالم ولأجل الديمقراطية»؛ كما أن أزمة عام 1929 ستجعل الزنوج يشعرون، وبحدة، أنهم إذا ما كانوا آخر من سيُلحقون بالعمل، فإنهم سيكونوا أول من سيُفصَلون في حال إنقاص العمالة.

هذا يفسر أنّ حركة «أكثر رديكالية» قد ظهرت إلى اليوم: وهي حركة «ماركوس غارڤي» (1887 ـ 1940)، أسود من جمايكا، عرف أن يجد، أفضل من أي إنسان، الطريق بشكلٍ غنائي الى احساس السود، الى الماضي الكبير لإثيوبيا لتومبوكتو Tombouctou. فأسس الـ «U.N.I.A» (الجمعية العالمية لتطوير الزنوج) التي اشترت بواخر مخصصة لخطوط النجمة السوداء (خصم النجمة البيضاء) وكان لها علمها. تنبأ بالعودة إلى إفريقيا، وإذا ما اخفقت الحركة بسرعة، لا يمنع أنها امتلكت قيمة تنبؤية.

3 ـ النضال ضد الفصل العنصري والحركات السوداء

إبّان الحرب العالمية الثانية، حمل التهديد بالزحف على واشنطن، بتحريض من فيليب راندولف Philip Randolph، روزفلت، في 1941 على إصدار الأمر رقم 8802 الذي منع كل تمييز عرقي أو لوني في استخدام العمال؛ الإلغاء أُبطل في بعض شعب الجيش لا غير؛ الصليب الأحمر الأميركي استمر

في وضع دم السود ودم البيض في أوعية مختلفة، والجنود السود استطاعوا أحياناً رؤية الأسرى الألمان يأكلون في مطعم عربات السكك الحديدية الذي كان الدخول إليه ممنوعاً عليهم بفعل قوانين جيم كراو.

غداة الحرب، بوشر العمل، رغماً عن الترددات والصعوبات بعملية النضال ضد الفصل العنصري، والذي توج ببعض النجاح البطيء والمكلف، نظراً لصعوبة تغيير العقلية الجماعية.

لم يعترف بحق المساواة السياسية إلا بشكل بطيء جداً: فبدءاً من عام 1946 عيّن هـ. ترومان لجنة وضعت تقريراً أوصى بتعزيز الحقوق المدنية، وفقط في عام 1964، في عهد رئاسة جونسون، صوّت الكونغرس على قانون للحقوق المدنية في منتهى الأهمية، ألحقه بعدد من القوانين منذ عام 1965 منشئة موظفين فدراليين مكلّفين بالسهر على حرية تسجيل الزنوج على اللوائح الإنتخابية، حيث كان التمييز ماثلاً للعيان. فقد كان هناك في عام 1968 من أصل 5 ملايين زنجي ناخب في ولايات الجنوب 000 3100 مسجلين أي 62%، في حين كان عدد غير المسجلين 000 3500 في عام 1960.

وقد كان للمسألة أهميتها فيما يتعلق بالمدرسة بشكل خاص. فقرار المحكمة العليا بتاريخ 7 أيار 1954 (براون ف. مجلس التربية) بتركيزه على كون «شروط التربية

المنفصلة هي في غاية عدم المساواة» قد أسقط كل الاجتهادات السابقة على عام 1896. والتطبيق العملي لهذا المبدأ لم يكن أمراً سهلاً، على اعتبار أن الحكومة الفدرالية، كان عليها، أمام تعنت الحاكم «فوبوس» Faubus أن ترسل وحدات من الجيش إلى ليتل روك Little Rock من أجل إدخال تسعة أولاد زنوج الى الثانوية المركزية. ودخول جيمس ميريديت James Meredith إلى جامعة الميسيسيبي في عام 1962 أدى إلى قيام فتن نتج عنها قتيلان.

بشكل عام، الإفلاح كان متحققاً في الميادين الأخرى؛ أصبح الدمج أمراً واقعاً في واشنطن (537000 أسود من 756000 مقيم، أي 71% في 1970)؛ اللوحات التمييزية مالت إلى الاختفاء، من جهة المسكن، على سبيل المثال، فنحن لا نزال في مرحلة التحسن الناتج من الحالات المنفردة.

كل هذا التقدم لم يُنَل دونما عناء؛ أحتاج جيداً إلى الدموع والدم؛ والظفر بالمساواة كان نُصْب الصراع الملتحم لمنظمات السود، ظهرت هذه المنظمات في ثلاث هيئات:

أ ـ الـ «N.A.A.C.P» برّزت كأنها الحركة الأكثر اعتدالاً، والتي لم تريد الثورة بواسطة القانون، وهي تمثل مصالح البورجوازية السوداء أكثر من الحضور الشعبي. وقد لعبت دوراً كبيراً في الصراع من أجل القضاء على الفصل العنصري المدرسيّ: نحن مدينون لها بقرار الـ 1954، لكن الكفاح المحصور بالمستوى الحقوقي والالتزام بحرفية التشريع أصبح

من المواقف التي يمكن تجاوزها: كتب لويس لوماكس Louis Lomax «الأحداث الجديدة، قضت على الإيمان بالتزام حرفية التشريع كوسيلة للإنقاذ».

ب ـ **الحرية اليوم Freedom now**، هذا هو الشعار المرفوع من أنصار الدمج المتتابع. وعنوان كتاب مارتن لوثر كينغ «لماذا لا نستطيع الانتظار Why we can't wait» يعبّر عن هذه الحالة الذهنية. الترجمة الفرنسية لهذا العنوان في «ثورة بلا عنف Révolution non violente»، امتلكت مزيّة، لشكل الحركة، بأنْ وضعت في الضوء صورة أخرى: الرفض لاستعمال القوة على الأقل في البدء. عقب حادث يتعلق بموقف أوتوبيسات مخصص للبيض، حصلت مقاطعة سلمية لشركة الأوتوبيسات، وذلك في مونتغومري Montgomery، في 1955. انتهت المقاطعة بنجاح ورفعت إلى مصاف النجوم قسّاً في سن 27 عاماً، مارتن لوثر كينغ الذي ظهر كمريدٍ لغاندي، داعية اللاعنف؛ فجمع حول الشباب الطلابي في «لجنة التنسيق الطلابية للاعنف»؛ (بالمختصر S.N.C.C. وبلا تكلف SNICK). كان قد تأسس في 1942 «كونغرس المساواة العرقية» C.O.R.E من قبل هوزر Houser، ثم استمر في قيادته فيما بعد جيمس فارمر James Farmer؛ وقد أخذ أيضاً بالوسائل السلمية: إشغال السود للأماكن الممنوعة عليهم: المطاعم، أحواض السباحة، المحال التجارية، المسارح، إلخ؛ سوف يساعد «مشاة الحرية» السود في صراعهم ضد

العنصرية بتأييدهم «إلغاء الفصل العنصري» في النقل والتسجيل على اللوائح الإنتخابية (1961). لكن منذ ذلك الوقت ظهر العنف: اغتيل ثلاثة بيض، سائحو الحرية في 1964 في المسيسيبي، كما قتل أربعة فتيات بقنبلة ألقيت على كنيسة في «برمنغهام» (آلاباما). سوف يشهد صيف 1964 حي هارلم للسود في نيويورك يشتعل بالنار ويغرق بالدم. وفي 1965، وبلغت فتن واتس Watts في لوس أنجلوس التي قليلاً ما عرفت في الحقد العنصري. هذا يفسر ربما، من بعض الوجوه، موقف لوثر كينغ الجديد، والذي سوف يقتل بطلقة نار في وجهه في ممفيس Memphis (تنيسي)، في 4 نيسان 1968، والذي تخطته الاحداث في الواقع. كان قد حل محله في 1966 على رأس الـ Snick من ستوكيلي كارميكايل Stockely Carmichaël الذي اخترع شعار «السلطة السوداء».

ج ـ **المسلمون السود**. يوجد حقيقة اتجاه أكثر عنفاً، انفعالية، ووطنية الذي، بحسب الواقع، ويقع تاريخياً في خط حركة «غارڤي» الذي هو حركة «المسلمين السود». إذا ما الحركة عادت إلى 1930 مع درو علي Drew Ali، في الواقع، فإن جهود إليجاه محمد Elijah Muhammad التي أحيتها بعد الحرب العالمية الثانية: أعضاؤها فضلوا الإنكماش على أنفسهم وتنظيم عالم خاص بهم أكثر من النضال من أجل عملية دمج وهمية ومساواة لا طائل فيها: هم رأوا الحل ليس في عملية دمج مستحيلة ولكنْ بكل صراحة في التقسيم

الجغرافي، قسم من أرض الولايات المتحدة يلزم أن يصبح جمهورية سوداء مستقلة. هذا كان على الأقل فكرة مالكولم العاشر Malcolm X. لقد وصل إلى نوع من العنصرية العكسية حينما صرّح في لوماكس Lomax: «لن يكون هناك دمج. هو يفترض أن العرقين الأسود والأبيض هما متساويان... لكن ذلك ليس بالأمر الصحيح. فالإنسان الأبيض بطبيعته شيطان ويجب القضاء عليه. فيرث الإنسان الأسود الأرض التي تعود تحت سلطته، ويستعيد الموقع الذي كان له لقرون خلت، حينما كان الشياطين البيض يزحفون على أربع في كهوف أوروبا (...!!)». قتل مالكوم في 21 شباط 1965 في قاعة من هارلم، في اجتماع «تنظيم الوحدة الأفرو ـ أميركية» الذي كان أسسه بعد أن طُرد من «المسلمين السود» في أواخر 1963 إليجاه محمد نفسه.

تأسس حزب «الفهود السود»، في عام 1966 في أوكلاهوما من كاليفورنيا، وكان معجباً بـ ماوتسي تونغ، فيديل كاسترو، وتشي غيفارا، وهو يأخذ بتكتيك مضايقة السلطات المدنية والشرطة بوسائل حرب العصابات في المدن: فهو، إذن، يحاول أن يجد حلاً للمسائل العنصرية عن طريق العنف. أخذ آخرون، لاسيما المثقفون منهم بطريق الماركسية التي أعاد ماركوز Marcuse النظر فيها وصححها بشكل خاص؛ وهذه هي حالة أنجيلا ديفيس Angela Davis التي اتهمت بالتواطؤ بمقتل قاضٍ من كاليفورنيا في 1970.

ما من أحد يستطيع أن يتنبأ بمصائر تطرفية الزنوج، لكن من دواعي الدهشة أن لا تحصل حوادث جديدة، لأنه إذا صارت المسألة العنصرية جرحاً في خاصرة أميركا، ربما يكون ضمد، غير أنه بعيداً من أن يشفى.

كذلك، في الـ 3 تشرين الثاني 1979، في غرينسبورو من كارولينا الشمالية، قتل أربعة معادين للعنصرية خلال تظاهرة على يد أعضاء الكوكلوكس كلان، الذين بُرِّؤا بعد انقضاء عام؛ على هذا المنوال، انفجرت عصيانات عنيفة في ميامي، من فلوريدا، الـ 17 و18 أيار 1980، عقب صدور حكم برّأ أربعة من رجال الشرطة البيض اتُّهموا بضربهم حتى الموت الأسود ملك دوفيي McDuffie المدان مخالفة فرضيّة؛ أسفرت عن وقوع 15 قتيلاً وأكثر من 200 جريح.

في تشرين الأول 1983 أقرّ مجلس الشيوخ الأميركي قراراً بجعل عيد ميلاد لوثر كينغ يوم عطلة بدءاً من 1986.

II ـ الـ «أپارتايد» L'apartheid في إفريقيا الجنوبية

إختفت في أميركا، قوانين جيم كراو الواحدة تلو الأخرى؛ المساواة كانت مُتحصلة في القانون، بنضال الناس ضد الفصل العنصري حقاً؛ أما في إفريقيا الجنوبية، ظهر هذا الفصل العنصري بفعل القانون في 1948 وازداد شدة تحت إسم الـ «أپارتايد».

1 ـ العناصر الإثنية

بالمستطاع توزيع العناصر الإثنية في أربع مجموعات: البيض (حوالى 4979000) الذين كانوا إما إنكليز، أو هولنديين (بوير أو أفريكانرز يتكلمون الأفريكنز، لهجة مصدرها اللغة النيرلندية) وأحفاد الهوغونو **Huguenots** الفرنسيين المهاجرين[1]. الملونون أو الخلاسيون، هم المتحدرون من خليط من البيض وقُدامى السكان المسترقين الماليزيين **Malaises** والهوتنتوت **Hottentotes**[2] (حوالي 3168000)، وهم يقيمون بالأخص في كاب **Cap**، بينما بوجود الهنود وبكثرة في ناتال **Natal** (941000)، هؤلاء كانوا هاجروا في القرن التاسع عشر. هناك أخيراً السود (21500000)، المدعوون أول الأمر كافر **Cafres**، ثم ناتيف **Natives**[3] بالإنكليزية أو الطبيعيون في الأفريكنز، أي سكان البلاد **الأصليين**، والذين يشكلون المجموعة الأكبر عدداً (هذه التقديرات تعود للعام 1989).

مواطنو المولد[3] الحقيقيون الذين، بحسب الأفريكانرز، كانوا الهوتنتوت والبوشمن **Bushmen** أو بوشيمنز **(Boschimans**)، حصل أن اندثروا بالتقريب إلا قليلاً ولم

---

(1) وهم بروتستانت ـ المترجم.

(2) شعوب جنوب إفريقي ذو بشرة ضاربة إلى الصفرة ـ المترجم.

(3) بمعنى سكان البلاد الأصليين ـ المترجم.

يكونوا من السود. السود أرادوا، هم، أن يُبيِّنوا تحت إسم الأفارقة، لكن هذه الكلمة، استعملها البوير لأجل أن يُبيِّنوا هم أنفسهم، أيضاً التسمية الرسمية للسود كانت هي بانتو Bantous (كلمة تعني «الرجال» في لسان قوم سود إفريقيا الجنوبية). هؤلاء السود يعيشون موزعين في قلّة بالثلث بالتساوي: في المعازل أو أراضي البانتو، في المناطق البيضاء كعمالٍ زراعيين، أو في المدن الأوروبية. إن كل ذلك يضعنا أمام فسيفساءٍ عنصريةٍ هي في منتهى التعقيد. إضافة الى ذلك فالبيض الذين كانوا يقيمون في إفريقيا الجنوبية ويشكّلون خمس عدد السكان يعتبرون أنفسهم، بمقدار ما عدد السكان السود في بلدهم Leur Pays ولا يتصورون مغادرته على الاطلاق.

نجمت السياسة المعتمدة تجاه السود، عن توافق قليل الوضوح: حتى الحرب العالمية الثانية، لم تظهر المشاكل كأنها شديدة الإلحاح، لأن عدد الزنوج المدينيين كان قليلاً، وإذا ما كان هناك فصل في الواقع فإنه لم يكن مثبّتاً في القوانين والمراسيم. ونجاح الحزب الوطني في 1948، يعود إلى القلق المتصاعد للبيض أمام التزايد المستمر لعدد السود في المدن. منذ تلك اللحظة، وخلافاً للتطور العام الحاصل في باقي بلدان العالم، وُضعت من حكومة الدكتور مالان Dr. Malan سياسة موجهةً للغاية تحت إسم «الأپارتايد». وقد استمر الأخذ بهذه السياسة وبعناد من خلفائه

م. ستريجدوم M.Strijdom، والدكتور ڤيرويرد Verwœurd، وم. ڤورستر M.Vorster؛ كلهم تمسكوا بترجمة الكلمة بـ «التطور المنفصل» وليس بالفصل العنصري، في حين أن المعنى الحرفي للكلمة هو بالضبط الدفع وليس التطور. الأبارتايد يسمح متفرداً بالعودة إلى الحالة شديدة القِدَم حيث كان البيض وغير البيض يعيشون منفصلين واحدهم والآخر. إذا ما أوجبت هذه الحالة الوصول إلى تقسيم الأرض في إفريقيا الجنوبية، فستشكل، حسب الحزب الوطني، حلاً لا غبار عليه من الناحية الأخلاقية والعقلية. (شائكٌ أن نلاحظ أن هذا الحل يقترب ـ لأسباب معكوسة كلياً ـ من الحل الذي يتصوره السود المتطرفون في الولايات المتحدة). لكن هذا الحل يبقى متعذر التحقيق سياسياً، لأن اقتصاد البيض يتوقف إلى حد كبير للغاية على اليد العاملة غير الأوروبية. لذلك فالهدف الحقيقي «للأبارتايد» هو، باعتراف قادة جنوبي إفريقيا أنفسهم، إطالة عمر سيطرة البيض: «لا يكفي أنّ البيض «يقودوا» أو «يديروا»، يجب أن يسيطروا، وأن يمتلكوا العظمة. . . وإذا ما وافقنا على أن رغبة الشعب في أن يتمكن البيض من الاستمرار في الدفاع عن أنفسهم في الابقاء على سيطرتهم. . . نحن نقول إنّ بالإمكان الوصول إلى هذه النتيجة بالتطور المنفصل». هذا ما صرّح به في 1963 رئيس الوزراء ڤيرويرد Verwoerd.

2 ـ التطبيق لـ «الأپارتايد»

وقد تُرجم بعدد من التدابير المقيّدة والمانعة.

أيضاً قانون 1950، «منع النشاط الشيوعي»، سيكون تفسيره أوسع الانتشار الأوسع وسيسمح بمنع التظاهرات غير العنيفة والعصيان المدني حالما يحاول غير الأوروبيين «تحديد تغيير سياسي أو صناعي أو اجتماعي أو اقتصادي في الاتحاد باستعمال التحريض على الاضطرابات أو الفوضى»؛ وقانون التخريب في حزيران الصادر سنة 1962 والذي أدخل جنحة جديدة الـ «التخريب»، المؤتمن على غايات سياسية؛ كل ذلك سمح بإسكات لوتولي Luthuli الحائز على جائزة نوبل للسلام، وم.م. نوكوه M.M.Nokwé و«دونكان» Duncan وكثيرين غيرهم.

إن قانون «منع الزيجات المختلطة» أتى يمنع في 1949 الزيجات بين الأعراق المختلفة (وقد ظهر ضرورياً إذا ما فكرنا أنه كان هناك في 1946، 75 زيجة «مختلطة» من أصل 28000 زيجة بين البيض) وقانونا «الأخلاق غير السليمة» لعامي 1950 و1957 منعاً للعلاقات الجنسية بين أفراد من أعراق مختلفة. الفصل العنصري كان يمارس في التربية العامة، لأنه معلوم جيداً بأن التعليم يجب أن يتوافق مع الطموح الخاص لكل عرق، وهذا هو الغرض من «قانون التربية للبيانتو» في 1953؛ في 1959، منع «قانون التوسع في التربية الجامعية» تسجيل الطلاب غير البيض في

الجامعات التي كانت لتاريخه متعددة الأعراق.

يضاف إلى كل ذلك قانون 1950 حول مناطق التجمع (قانون مناطق التجمع) والذي هو في الإلحاق القسري للسكان بقطاع جغرافي معين، تبعاً لانتمائهم العرقي. وبذلك يعطي أيضاً للحكومة السلطة لإبعاد حتى بالقوة «الأفارقة، الهنود، أو الخلاسيين من مراكز المدن والأحياء التجارية المخصصة للبيض وحدهم. ان وضع دفتر (كتيّب مرجع) لكلّ لا ـ أبيض يكوّن نوعاً من جواز داخلي. وقد أتى ذلك ليحل محل «نظام أذونات المرور» القديم الذي دفع بـ لوثولي Luthuli إلى إطلاق صيحات السخط الشهيرة. يسمح الكتيِّب في كل وقت بممارسة المراقبة على أي إنسان قاتم البشرة قليلاً. ونفهم أفضل الطابع التفتيشي والصفة المزعجة لاستعماله، عندما نتصور أنه ما بين 1951 و1961 كان هناك 3500000 إصدارات حكم فقط للذنوب بخصوص أذونات المرور؛ بالمستطاع إضافة أنّ، لأجل السنة القانونية 1973 ـ 1974، نصل إلى عدد زُهاء 500000 حكم لمخالفة «قوانين أذونات المرور». أخيراً قرار فرض الدراسة الإجبارية للغة الأفريكانز «l'Afrikaans»، وفي التعليم الثانوي سبّبَ فتن سويتو Soweto (من 16 إلى 25 حزيران 1976: 176 قتيلاً بينهم 2 بيض)؛ وفي حزيران 1980، بمناسبة الذكرى الرابعة لانتفاضة الشباب السود في سويتو Soweto أعطت فرصة لفتن مأساوية، أدت الى وقوع حوالي 60 قتيلاً في مدينة «الكاب»،

وهذه المرة انضم الخلاسيون الى السود في انتفاضتهم. مجموع هذه التدابير في الفصل العنصري كان مرافقاً لخَلْق الـ بانتوستان Bantoustans (أو أرض الوطن)، أي إضافة مناطق للسود، مفصولة عن البيض، يتمتع فيها السود المعزولين بكامل حقوقهم السياسية. إن أول بونتوستان هو الترانسكي Transkei في 1963، نال في (1976) على استقلاله بموافقة بريتوريا Pretoria، غير أنَّ هذا الاستقلال لم تعترف به أية دولة في العالم والجمعية العامة للأمم المتحدة تعتبر نظير باطلٍ وكأنه لم يحدث. وطن آخر، البوفوناتسوانا Bophutatswana نال استقلاله في 6 كانون الأول 1977، غير أنه يلزم التدقيق في أنَّ، منذ آب 1976، 6 رؤساء من أرض الوطن رفضوا في تبصُّر مُعادل استقلال أنْ قضوا بأنه خادع.

3 ـ نتائج «الأبارتايد»

حتى أيضاً إذا أقرّ جهاراً قادة إفريقيا الجنوبية البيض بحسْن نواياهم ونقائها وأعلنوا بالصوت العالي أنهم لا يريدون سوى الخير للسود، فإن واقع الحال يجعلنا نتأكد من أن سياستهم تقوم على القناعة المطلقة بالتفوق الأكيد للعرق الأبيض، ويجب أن نضيف أن الأفارقة السود هم أعداء بالنسبة لهم.

نادرون البيض الذين يذهبون إلى حد المطالبة بالقضاء الكلي على «الأبارتايد»؛ لكن بامكاننا ذكر رواية آلان باتون Alan Paton، «أذرفي الدمع يا بلادي المحبوبة» Cry, my

beloved country، التي ترجمت الى عدة لغات، محققة شهرة كبيرة. إذا ما وافقت الكنيسة الإصلاحية الهولندية، «التي جمعت ثانيةً جوهرياً أفريكانرز «Afrikaners» على سياسة الفصل العنصري، نستطيع جيداً القول بأنها الكنيسة الوحيدة التي قامت بذلك» باعتبار، أنه باستثنائها، هناك إجماع تام من بقية الكنائس ضد «الأپارتايد». التصريحات الشخصية لمطارنة جوهانسبورغ والكاب، التي في الميعاد يجتمع أساقفتها، كل ذلك جعل الكنيسة الأنغليكانية تعلن بشكل قاطع في عام 1957: «تحت أي شكل كان، «الأپارتايد» هو استعمال خاطئ وينبثق من فكر شرير». والمذاهب المتيودية[1] الأبرشانية[2] والمشيخية[3]، والمعمدانية[4] سويةً وقفت «ضد الأپارتايد». من جهة الخطر «الروماني»[5] كان أعلم عنه مرات كثيرة ممثلو «الكنيسة الإصلاحية الهولندية» التي طالب بعض قساوستها بضرورة منع كل كاثوليكي من

(1) العائدة لنظرية كنيسة الميتوديين أو تعاليمها، وهي حركة دينية إصلاحية قادها في أوكسفورد في 1729 جون ويزلي في محاولة لإحياء كنيسة إنكلترا - المترجم.

(2) نظام متبوع في المذهب البروتستانتي يقضي بأن يكون لكل أبرشية استقلال ذاتي - المترجم.

(3) ذو علاقة بالكالفانية، وهو مذهب شبيه بروتستانتية بشّر بها كالفان - المترجم.

(4) مذهب يقول إن المعمودية يجب أن تتم بعد سن البلوغ - المترجم.

(5) الكنيسة الكاثوليكية الرومانية - المترجم.

دخول الجمهورية. . . التراتبية الكاثوليكية الرومانية كان لها موقفاً عَدائياً من «الأپارتايد» بحيث إن مجموع أساقفتها صرَّح في 1952: «ان التمييز العنصري هو ضد حقوق الكائن البشري»، بحيث إن مطران الكاثوليك في مدينة الكاب عارضه ووقف ضده، وأنّ البابا عيَّن فرداً من «الزولو» مطراناً في أسقفية الناتال الجديدة. الـ 28 تشرين الثاني 1977، شهَّر البابا بولُس السادس Paul VI في خطبة موجزة إلى المطارنة الأفارقة، بـ «الحالات الصعبة الاحتمال من جراء التمييز العنصري الذي لا يزال يشكل الجرح في بعض البلدان الافريقية».

على المستوى الدولي، أدت سياسة «الأپارتايد» على إثْر الإعدامات بالرصاص في شارپيڤيل Sharpeville و«لانغا» ـ Langa، الى إنسحاب إتحاد إفريقيا الجنوبية من الكومنولث، وتبع ذلك إعلان الجمهورية في أيار 1961. ينبغي أيضاً أن نبيِّن أنّ سياسة «الأپارتايد» تعتبرها الجماعة الدولية بمثابة خرقٍ فاضحٍ لمبادئ شرعة منظمة هيئة الأمم. تتمسك حكومة إفريقيا الجنوبية بالطبع بعدم صلاحية الأمم المتحدة في الموضوع، لكن الجمعية العمومية تعاود باستمرار تفحص مسألة، «الأپارتايد»، مذكِّرةً حكومة بريتوريا بواجباتها ومطالبةً الدول الأعضاء باتخاذ التدابير ضد حكومة الأفريكانرز، خصوصاً قطع العلاقات التجارية والدبلوماسية مع إفريقيا الجنوبية.

4 ـ نحو زوال «الأبارتايد»

منذ عدة سنوات وُضعت موضع التنفيذ سياسة إختيارية لتليين وبالتالي إزالة «الأخلاق غير السليمة» الصادر في 1957 وكذلك قانون «منع الزيجات المختلطة» الصادر في 1949، ثم في 1986 أُلغيت قوانين «أذونات المرور الداخلية». الرئيس دي كلارك ـ de Klerk المنتخب في 1989 عجّل وتيرة «إزالة التمييز العنصري»، فحرر أولاً في 11 شباط 1990 م. نلسون منديلا الذي سيصبح رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي (A.N.C) الـ 5 تموز 1991، ثم قام في 5 تشرين الأول 1990 بعملية التصويت على إلغاء قانون 1953 المختص بالفصل العنصري في الأماكن العامة، ثم في 5 حزيران 1991 على إلغاء قانون «مناطق التجمع» الصادر في 1950، وقوانين ملكية الأرض؛ أخيراً، في 17 حزيران 1991، اختفى قانون «تصنيف السكان» ممّا سمح بالأصل أن يصبح «الابارتايد» من الآن وصاعداً، من بقايا الماضي؛ ورفع العقوبات الاقتصادية في كثير من البلدان هو بَيِّنة، بينما جائزة نوبل للآداب للعام 1991 مُنحت للسيدة غورديمر Gordimer الأفريقية البيضاء، المناضلة من أجل حقوق السود.

III ـ مظاهر أخرى للعنصرية

فرنسا لم تكن، بما أنها أمة عنصرية أكثر من غيرها، هي بلا ريب أقلّ قليلاً. ولو أنها أنتجت غوبينو، فهي ألغت

الرق، وحررت يهودييها واعتبرت السود مساوين للبيض، وتحمست من أجل العدالة في قضية دريفوس Dreyfus أفضل من أميركا التي لم تفعله لأجل قضية روزنبرغ Rosenberg، وشرعت في وضع نهاية لقضايا استعمار الشعوب عريضة ومستوعِبة، ومساهمتها في مساعدة الدول المتخلفة هي الأكثر نسبياً من مساهمة معظم الدول الغربية الأخرى.

الفرنسيون، هم أيضاً بامكانهم أن يكونوا عنصريين، ولكن ليس أكثر من الشعوب الأخرى، لكنْ يقيناً أقل منها؛ هذا بالأخص وجود العمال المهاجرين في فرنسا الذي طرح مسائل التكافل أو بالأحرى الاتحاد الوثيق، في منتهى الصعوبة، كما أمكن الكلام عن عنصرية معادية للعرب (بالخصوص عندما حصلت ردات فعل أعقبت مقتل سائق أوتوبيس على يد جزائري مريض عقلياً في غضون صيف 1973 في مرسيليا). في الكورنوف La Courneuve في 9 تموز 1983 يُقتل الصغير توفيق عُواتّيس في «جمع كبير»؛ في تشرين الثاني التالي يُشنق فتى جزائري ويُلقى به من النافذة في قطار بوردو ڤنتيميل Vintimille . . . بقدر ما هي موجودة هذه العنصرية بقدر ما هي غير معممة وهي مرتبطة بهيئات اقتصادية ومهنية سنعود إليها.

من قديم، يطالب الناس في فرنسا بانشاء جهاز تشريعي يرمي الى ردع العنصرية؛ بلا ريب، أنّ دستور 1946 يرفض في استهلاله التمييز بين الأعراق، والمعتقد والدين من جهة

حقوق الفرد ودستور 1958 إليها يُسند، غير أن هذه ليست سوى عموميات مجردة؛ بالتأكيد، كان هناك «قانون مارشاندو Loi Marchandeau» (بالحقيقة مرسوم الثاني من نيسان 1939) بخصوص القدح العنصري، لكنه تكشّف عن عيوب بيّنة؛ بالاضافة إلى ذلك، انضمت فرنسا في 28 تموز 1971 الى الاتفاق الدولي لإلغاء كل أشكال التمييز العنصري الذي وضعتها منظمة الأمم المتحدة في 1966، لكن كل ذلك لم يكوِّن ترسانةً كافيةً. كثرت الحوادث التي عكستها الصحافة: إذلالات، تمييزات متنوعة، رفضٌ في أحد مقاهي الحي اللاتيني لخدمة السود، إلخ. نصٌّ واضح، بالعُرف الفني مُنشأ جيداً، الذي ظهر نظير ثمرة للتعاون الرائع بين البرلمان والحكومة، هو قانون الأول من تموز 1972 «المتعلق بالنضال ضد العنصرية». وهو يسمح لكل جمعية تحارب العنصرية بممارسة الحقوق المُعترف بها للطرف المدني في الجُروم العنصرية (حكم التمييز في 15 شباط 1973 في قضية بيع وشراء ألعاب صور غريبة واستهزائية حاملةً العنوان «يهودي، 25,30 فرنك» في ديجون Dijon)؛ حصلت مرافعات أخرى من قبل أشخاص حقيقيين ومنظمات معادية للعنصرية قامت بحملات ضخمة لتضع حداً للتمييز العنصري بالخصوص في عروض العمل. وقد استكمل هذا القانون بقانوني 3 كانون الثاني 1985 و13 تموز 1990. من بين الحركات التي تصارع العنصرية في فرنسا مع تصلب الرأي ونفوذ، بالوسع أن نذكر:

الـ L.I.C.R.A. (الرابطة الدولية ضد العنصرية ومعاداة السامية) التي أسسها برنار ليكاش Bernard Lecache في 1928، مرؤوسة من ج. ڤيير ـ بلوش Jean Pierre-Bloch، والتي نشرت «الحق في العيش» Le Droit de Vivre؛ الـ M.R.A.P. (الحركة ضد العنصرية، ضد معاداة السامية ومن أجل السلم) التي أسسها في 1949 بيير باراف Pierre Paraf، والتي تصدر «الحق والحرية»، التحريران الأخيران القائمان بابتدائه حقّ لهما في هذا الوقت أن يتطورا كذلك: ومن أجل السلم بين الشعوب»؛ أخيراً «الانقاذ من العنصرية» S.O.S. Racisme مؤسساً من هارلم ديزير Harlem Désir.

يجب وصفُ المؤامرة البشعة على كنيسٍ في شارع كوبرنيك Copernic، في باريس، في 3 تشرين أول 1980، بعد مرور أربعون عاماً على وضع نظام لليهود من حكومة ڤيشي؛ وقد أوقعت 4 قتلى و20 جريحاً، فأثارت موجة عارمة من السخط المشروع، لكنّ مدبّريها حتى الوقت الحاضر لم يعرفوا فيما بعدُ كانت المجزرة في شارع الورود في باريس (في مطعم غولدنبرغ، حيث سقط 6 قتلى في 8 آب 1982)؛ في بروكسل (4 جرحى في 18 أيلول)؛ في الكنيس في روما (مقتل طفل عمره سنتان و34 جريحاً في 9 تشرين الأول).

إن القيام بإحصاء البلدان التي تظهر فيها العنصرية بشكل عَرَضيّ سيكون رهاناً بلا فائدة؛ مع ذلك نشير الى ما يلي:

ـ وجود مسألة يهودية في الاتحاد السوڤياتي الذي بلا

ريب، لم ينهض من مقصدٍ عنصريٍ مُتقنٍ، إنما ظهر نظير الإرث لمعاداة السامية غطته جزئياً معاداة الصهيونية.

ـ النزاعات اليهودية ـ العربية التي ليست لها، على ما يبدو مظهراً عرقياً للوهلة الأولى. فالأسباب السياسية والدينية، واللغوية، والجغرافية، والتاريخية، هي من الكثرة هنا بحيث لا يمكن الادعاء بتفسير المسألة ببعض السطور.

منذ الطبعة الأولى لهذا العمل، صوتت الجمعية الحكومية لهيئة الأمم على نص مذهل «يعتبر أن الصهيونية هي شكل من العنصرية والتمييز العنصري» (القرار رقم 3379 في 10 تشرين الثاني 1975)[1]. هنا صرَّح الأمين العام، م. ڤالدهايم، على الفور أنه يصرح بأنه «يشعر بعمق بخطورة الوضع»، وهذا الرأي أحدث في العالم اضطراباً عميقاً.

يبدو على الاجمال، أن استعمال الكلمات لم يعد يتوافق مع تعريفاتها، حتى ولو أن العملية السياسية المأخوذ بها هنا لا ترمي إلا إلى عزل وفضح دولة إسرائيل. ففي الواقع إنه لأمر غريب أن توجّه الملامة إلى من بقي على قيد الحياة أو إلى أحفاد ضحايا أفظع إبادة جماعية في التاريخ بتهمة أن تصرفهم هو مماثل لتصرف جلاديهم. فاعتبار سياسة دولة

---

(1) سبعة وثلاثون عاماً تعاقبوا من بعد الـ «اكريستالناشت» La Kristallnacht. القرار كان مُقرّاً بـ 72 صوتاً ضد 35، 32 ممتنعاً، 3 غائبين.

إسرائيل بمثابة السياسة الامبريالية أو الوطنية هو شيء، والقول أن الحركة الصهيونية التي أبصرت النور أثناء قضية دريفوس والتي ما فتئت تتوسع بالنسبة للعنصرية المعادية للسياسة، والقول أنها حركة عنصرية هو شيء آخر كلياً... فمثل هذا القرار لن يكون له من نتيجة ملموسة سوى تأجيج أو تنشيط موآزرة إسرائيل من قبل كل يهودي في «الدياسبورا»، وتصلب المواقف لدى كل من الطرفين وإعاقة «الحل المرضي لمسألة الشرق الأوسط، بمختلف أشكالها». وهذا ما يحصل بالفعل، على اعتبار أن إسرائيل لم تعد ترى، أكثر وأكثر، أنه منوط بها الدور الذي لا تُحسد عليه، والذي كان يقوم به اليهودي في أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين.

وفي 16 كانون الأول 1991، صوتت منظمة الأمم المتحدة، وفي غالبية، على إلغاء قرار العاشر من تشرين الثاني 1975.

الفصل السادس

علم النفس الإجتماعي

يبقى أن نتناول ما يسمى الموقف العنصري المعادي لمعاصرينا. يتعلق الأمر هنا بتجليات واسعة الانتشار، بالرغم من كونها غير طبيعية، وهي مهمة لدرجة أنه انطلاقاً منها يمكن أن تتطور عنصرية فتاكة عدوانية بشكل مرعب، كالدمل المهمل الذي يمكن أن يفضي إلى تسمم. سنخصّها هنا بعرض محدود نسبياً بسبب مزدوج: أولاً الضرورة المادية للاختصار؛ ثانياً لأننا هنا بشكل خاص تجاه موضوعات تستدعي التفكير العميق وقد شكلت موضوعاً للعديد من الدراسات الممتازة. فتحليل التصرف العنصري يكشف النقاب عن فئتين من العناصر: البعض منها يتعلق بسيكولوجيا الفرد، والبعض الآخر بالإطار الإجتماعي.

I ـ الاستعدادات الفردية

اقترح م. ألبير ميمي M.Albert Memmi في عدد من

أعماله الرائعة التحديد: «إن العنصرية هي التقييم المعمم والنهائي لفروقات حقيقية أو متخيلة، لصالح المُتّهِم ومضرة بضحيته، كي يبرر امتيازاته أو مبادرته بالشر». هذه الصيغة تقدم تفسيراً ذا سمة سيكولوجية وأخلاقية للعنصرية أكثر من تحديد حقيقي لها. من المؤكد أن كل تعريف خطير، حقاً، ولكن بقدْر ما يقوم التعريف في علم الاشتقاق على رسم الحدود، فإننا نخشى أن يكون اقتراح م. ميمي M.Memmi فضفاضاً ويؤدي إلى أن يتضمن حقل العنصرية مواقف أو تصرفات لا مجال فيها على الاطلاق لأخذ العرق بعين الاعتبار. ونقترف مفارقة تاريخية إذا ما أردنا إسقاط مفاهيم عنصرية على فترات في التاريخ حيث لم تكن مفهومة للمعاصرين. هذا يجعلنا نُفضل التمسك بتحديدات أكثرية خارجية كتلك المذكورة في المقدمة.

بالمقابل، يظهر لنا تحليل لـ م. ميمي M.Memmi ثميناً للغاية لفهم التصرف السيكولوجي من الداخل الذي هو تصرف العنصري: في الحقيقة أن رفض قبول الآخر كمختلف هو في أساس الاتّهام: كيف يمكن أن يكون فارسياً؟ المسمى العنصري لا بد سيكشف وسيزيد هذا الفرق؛ لا يشكل أهمية أن يكون هذا الفارق حقيقياً أم متخيلاً، مهماً أو طفيفاً؛ يُقبل ويكبر، ويستعمل طبعاً من قبل العنصري؛ وبقدر ما يكون هذا الفارق ضاراً وشائناً بقدر ما يكون أكثر فائدة لاستعماله؛ يفترض أن يكون طبعاً معمماً، فليس عربي واحد هو كسول

(هذا يمكن أن يحدث) بل كل العرب، ليس يهودي واحد هو بخيل، لكنّ الجميع، الخ. . . وهذا يسمح في الوقت نفسه لكل عنصري (الظاهرة معروفة) أن يحصل له اليهودي الساخر أو العربي الساخر. كل هذه الآلية تتجه إلى تبرير تصرف العنصري بنظره هو بعينه، والذي لا يعود لديه وخز ضمير، لأن من ينتمون إلى الأعراق الموصوفة بالدونية هم كذلك في حالات اجتماعية دونية؛ العنصري سيحلّ في وضع له وطيء، فلا نعود نراه يتنازع مع الأقوياء؛ هذا ما يفسر العنصرية الشهيرة في «أبيض صغير» الذي يجد بالتالي تعويضاً على وضاعته والفرصة لبناء واسطة وهمية للارتقاء بقليل من المصاريف. هذا يسمح لنا أيضاً بفهم لماذا التفسير التحليلنفسي لتصرف العنصري غالباً يلجأ إلى ربط هذا الأخير بالشخصية المتسلطة، المشكوك فيها: هذا نموذج من الرجال، مكوّنٌ، خاضعٌ لسلطة المجموع، يفتقر إلى العون الخارجي، سيجد في الدونية المفترضة في الآخر سبباً إضافياً ليعتبر نفسه هو. فالتصرف العنصري إذن هو مرض ينبثق من نفس التفكير الذي لحامل الأوسمة غير الشرعية.

II ـ تأثير المجتمع

1 ـ إذا لم يكن عند الولد ردّات فعل عنصرية بشكل عفوي، مؤكد أن الوسط العائلي والتربية لهما مكان كبير في تطور الأحكام المسبقة. فالأوروبي الصغير، الذي يُهدَّد، في إفريقيا الشمالية بـ «إحضار العربي» إذا لم ينم بسرعة عند

المساء، سيحظى عندما يصبح يافعاً بإمكانية إظهار عداوة سهلة التفسير، لكن كم هي مصطنعة تجاه شعب كان قدم له في ما مضى بمثابة غول رهيب. الأفكار المسموعة حول طاولة العائلة من نوع «هؤلاء الأشخاص ليسوا مثلنا» استعمال الضمير المفرد أنتَ أو أنتِ في المخاطبة فرديةً لغير الجديرين بها، والعديد من الوقائع اليومية والعائلية، تؤدي غالباً عند الطفل إلى التفتح اللاحق لتصرفه العنصري. إذا الوسط الاستعماري، مثلما أبرز م. ميمي M.Memmi، كان بالأخص مؤاتياً لتأليف خرافات عرقية، الأهمية التربوية تبقى في مدينة ذات كرسي أسقفي كذلك ما يُسلّم به أنه حجر أساسي.

2 ـ حالة العمال المهاجرين هي التتمة المعكوسة للاستعمار، ليس فقط في فرنسا، لكن في العديد من دول أوروبا الغربية. هذا في شكل من الدوران المندفع نحو المركز توافدت اليد العاملة التي مصدرها بلدان الجنوب، الفقيرة والمتخلفة، المنتمي معظمها إلى «العالم الثالث». لقد تكاثرت، في البلدان المتقدمة، الأعمال والوظائف الشاقة، الوسخة، المرهقة، الأعمال القاسية بالأخص، حتى إنّ الوطنيين الموجودين في أسفل السلم الاجتماعي لا يريدون القيام بها. في القرن الماضي، في فرنسا، كانت «السافوا» و«الأوڤرني» أو «البريتاني» هي مصدر منظفي المداخن، ناقلي المياه، بائعي الفحم، أو الخادمات لكل عمل؛ أما اليوم فخدم المنازل غالباً من الإسبان أو البرتغاليين، في

باريس على الأقل. الأفارقة الشماليون والسود هم، مستأجرون معاونو البنّاء (ويقال بقلب المعنى المخجل «عمال متخصصون ـ O.S». . . متخصصون؟ . . . بماذا؟) أو كناسون، عمال تنظيفات: المهاجرون لا يجدون عملاً إلا في القطاعات الهامشية من العمل التي يميل عمال المدينة (العاصمة) إلى تركها. هذا واقعٌ غالباً ما يجري في الوسط المديني حيث البحث الصعب عن مسكَن سيكون الهم الأول للمهاجر: ولأسباب إقتصادية واجتماعية، سيصل الأمر بسرعة إلى الفصل العنصري من جراء ظهور: «مدن الصفيح»[1]، من أجل الخلاص ما أمكن من الجشع الفظيع لما يسمى «باعة النوم» الذين يؤجرون غرفاً ضيقة وغير صحية، حتى الأقبية أيضاً، بأسعار باهظة لـ 8 أو 10 مساكين، لمدة بضع ساعات في اليوم فقط. . .

واقعُ أن تكون إنساناً ملوناً أو عربياً وواقع أن تشتغل عملاً منحطاً غير ثابت، عاملان يدعم أحدهما الآخر، ونحن هنا تجاه عملية تراكمية؛ وزيادة ان عمال المدينة (العاصمة) يخشون غالباً من أن يُبدي المهاجرون طاعة أو مسايرة للسلطة. يجب أن لا يغيب عن البال أن هؤلاء البروليتاريين الجدد، هم غرباء بالتحديد، بناءً عليه غير ناخبين، لا يلتفت اليهم في الحقيقة، إلا قليلاً، هؤلاء الذين بالتسليم يصيرون يساندون قبل كل شيء تطلباتهم، ما خلا بالتأكيد حينما

---

(1) مدن أكواخ من الصفيح يقيمها المعدمون في الضواحي ـ المترجم.

يستطيعون استعمالهم بمثابة آلة حرب سياسية. كذلك النقابات التي ناضلت للحصول على بعض الامتيازات في هذا القطاع أو ذاك ليس بوسعها أن تنظر بعين الرضى إلى وصول المهاجرين الذين يمكنهم إنقاص حصة عمال المدينة «المتروبول» (العاصمة). هذا ليس بالحقيقة شيء من العنصرية، لكننا أردنا أن نشير (مجرد إشارة) إلى تعقد المسألة. عندما يكون الطلب أكثر من العرض في ميدان، فالمهاجرون يكونون أول من يصيبه أذى البطالة أكثر من المواطنين، لكن في أعين الكثيرين، لا يظهر ذلك سوى إنه نظير عدم عدالة نسبية، إذا لم يعتبر نظير عقاب يستحقونه تقريباً... وبالتالي يبدو... الموقع الاجتماعي للمهاجر كأنه دونيّة جلية ويقدم بالطبع للممارسات العنصرية هدفاً ممتازاً: وجه أكثر تلوّناً بلون القُلَزّ Bronzé، لغة مختلفة، وظائف ثانوية أو محتقرة، فقر وبؤس، في ذلك كل ما يلزم لجذب كره من يتركز اهتمامه (ربما بشكل لاشعوري) في أن يكون دوماً شخص ما دونه؛ ما دام صحيحاً أن المال يذهب بهذا المقدار إلى المال، لا يتجنب المرارة والمذلة المرتوين بها.

غالباً ما يلاحظ علماء الاجتماع أنه من غير المرغوب فيه ارتفاع نسبة المهاجرين إلى السكان المحليين في حدود وضع الـ 10%. بصدد المسألة، م. سشورزنباخ M.Schwarzenbach في 1970، تقدّم باقتراح في سويسرا يعين أسلوباً إجرائياً لتحديد عدد الأجانب المقيمين على الأراضي

السويسرية بـ 10% من السكان الأصليين، ولم يُرفض هذا الاقتراح إلا بأكثرية ضعيفة. وفي 13 آذار 1977، قُدِّم اقتراح «الحفاظ على سويسرا» والذي كان يرمي إلى إنقاص نسبة الأجانب من 15,3% إلى 12,5% في مهلةٍ عشر سنوات، رفض بنسبة 70% من الأصوات. في اليوم نفسه تقدم اقتراح «من أجل تحديد العدد السنوي للمتجنسين» وكان مرفوضاً بكثافة.

فهل أن السلوك العنصري محتوماً ولا مناص منه؟

❀ ❀ ❀

يجب التمييز، مثلما في مرض، بين عدة درجات من التطور، إذ إنه يوجد عدة أنواع من العنصرية.

الشكل الأعلى هو بالطبع شكل العنصرية العدوانية والمدمّرة التي كانت تمارَس من النازيين: هو يقوم على التخلص من أعضاء العرق المبغوض بالقضاء الجماعي عليهم: مثيل إذا ما استعمل مبيدٍ للحشرات للقضاء على الناموس. في هذه المرحلة...

الدرجة المتقدمة على ذلك هي درجة الفصل العنصري الذي يقيم الحواجز القانونية بين أعضاء مختلف الأعراق: هذه العنصرية تتسامح ببقاء الأعراق، غير أنها تشرِّع لدونية بعضها. وهناك أمثلة بقابلية تصدع هذه الحواجز، الذي حصل في حالة الزوال المتدرج للتشريع العنصري الأميركي.

هذا غير كافٍ، إذ إنه توجد درجة أخرى من العنصرية: ألا وهي تلك التي نجدها في الشكل المنتشر في البلدان حيث ما من أحدٍ تمييزٍ قانونيٍّ عُمِلَ بخصوص العرق وحتى في التي حيث العنصرية تُمنع. والنضال ضد العنصرية يمكن أن يُخاض بعدة أشكال: بالقانون والتنظيمات الادارية (لكن هذه ليس فيها سوى فعل الردع)؛ وبمعرفة المذاهب العرقية التي تُظهر ليس فقط طابعها العلمي الكاذب، ولكنها تبرهن أيضاً على فقرها الفكري، بحيث لا يبقى منها شيء يذكر. في غضون ذلك، يجب فيما يتعلق بمعاداة العنصرية، كما في كل شيء، الاحتراس من المغالاة. فالسيدان م.م. هيلد وديهيم M.M.Held et Dehem أبصرا جيداً هذا الفخ؛ المعادي للعنصرية الذي هو هاجس أخذ الموقف النقيض بالضبط للمذاهب العنصرية، سيعتبر بشكل قاطع أن السود هم أكثر ذكاءً من البيض وسيصل إلى التفكير أن هذا الفرد لا يمكن أن يكون كسولاً لأنه عربي وأنه يكون خطأً القول بأن العرب هم كسالى... فمخاطر التعميم المبالغ فيه هي نفسها من أي جهة ننظر إليها.

أن يكون في كل منا، عنصري يغفو، لأمر ممكن أو حتى محتمل، المهم هو أن لا نوقظه! العنصري الحقيقي لا يخجل؛ والعبارة المشهورة «أنا لست بعنصري ولكن...» تحتمل العديد من التأويلات. التأويل الأقل ملامة هو أن هذا الذي ينطق بها يكشف بذلك عن شعور يخجل منه ولا

يجرؤ على البوح به كما هو بعينه؛ هذا التحفظ هو في هذه الساعة احترام للفضيلة... ويصرّح م. ميمي M.Memmi أنّ «الاغراء العنصري هو بالضبط الذي نقاومه أقل ما يكون». في ذلك قول لاهوتي أو على الأقل من مؤلف أخلاقي قلما تناسب المقام.

ليس بوسعنا إلا نندهش من الأهمية التي يعلقها البعض اليوم على الخصوصيات، وذلك باسم معاداة العنصرية بالطبع، بدون الإدراك دوماً أنّ صنيع المدح لهذه الفروقات بمغالاة يشكل بالضبط المسعى الذي هو في أساس العنصرية. فضرورة احترام الآخر ومعرفة تقبله مختلفاً، هو بالفعل لأمر أساسي. والاندماج في الجماعة البشرية مع الاحتفاظ بما يفرق على حساب ما يجمع سيكون مفارقة. الاحترام لِـ«الزنوجية»، لفولكلور بريتون breton أو بخاصية كورسيكا لا يمكن أن يُوافق عليه إلا لأن الأسود البرتوني الكورسيكي هم جميعهم مشتركون في الطبيعة البشرية. الفكر القديم، التقليد اليهودي ـ المسيحي وفلسفة الأنوار تلتقي هنا في نزعة إنسانية، من الغريب أن تهاجم بعنف تقريباً في كل أنحاء العالم في النصف الثاني من القرن العشرين. التكنوقراطية الهادئة التي تعتبر الإنسان كنملة لا تبدي نحوه من الكره أقل مما كانت تبديه العنصرية الهتلرية. إذا سمحنا بشكل شيء، وإذا لم يعد هناك لا خير ولا شر، باسم من نقاوم اغراء العنصرية.

المترجم

د. عاطف علبي

- لبناني من مواليد بيروت 1926.
- حائز على الشهادات التالية:
- دكتوراه دولة في الاقتصاد 1968 (Ph. D. In Economics) من جامعة موسكو للدولة باسم «لومونوسوف».
- اجازة في العلوم السياسية والاقتصادية من الجامعة اللبنانية.
- إجازة في التاريخ من الجامعة اللبنانية.
- يجيد العربية والفرنسية والانجليزية والروسية، وهو يستعمل هذه اللغات الأربعة في أبحاثه ومؤلفاته.
- عمل لمدة 12 عاماً رئيساً للمصلحة الاقتصادية والتجارية في مكتب الانتاج الحيواني/ وزارة الزراعة، وفي الوقت نفسه كان أستاذاً محاضراً في الجامعة اللبنانية، كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية، فرع الأول (الصنائع).
- منذ العام 1982 تفرّغ للتدريس في الجامعة اللبنانية، كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية، الفرع الأول (الصنائع)، وذلك برتبة أستاذ (بروفسور)، وهو يشرف حتى الآن على أطروحات الدكتوراه فيها.
- أثناء عمله في مكتب الانتاج الحيواني شارك في عدد من المؤتمرات الدولية التي عقدت في لبنان والخارج.

في ما يلي لائحة بمؤلفاته وترجماته:

1 ـ الجغرافيا الاقتصادية والسياسية (والجيوبوليتكا) والسكانية ـ المقدمة، الطبعة الثالثة، بيروت 1988.

2 ـ الاحصاء، التاريخ والنظرية والتنظيم، الطبعة الثانية، بيروت 1981.

3 ـ العلمنة والاقتصاد اللبناني، بيروت 1979.

4 ـ الغذاء أو التغذية والانسان في لبنان، بيروت في 1980.

5 ـ اقتصاديات الثروة الحيوانية في لبنان، بيروت 1980.

(وكلها صادرة عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ مجد).

6 ـ الثروة الحيوانية في لبنان (جزءان)، معهد الانماء العربي، بيروت 1983.

7 ـ من الفكر الحر إلى العلمنة، دار الطليعة، بيروت 1986.

8 ـ تكنولوجيا المعادن، تطور التكنيك والأبعاد الاجتماعية، معهد الانماء العربي، بيروت 1987.

الترجمات عن الفرنسية:

9 ـ الجيوبوليتكا والجيوستراتيجيا، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت 1993.

10 ـ الجيوبوليتكا المعاصرة، مناطق الصدام، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت 1993.

11 ـ تاريخ الفكر الحر، معهد الانماء العربي، بيروت 1996.

12 ـ صورة الآخر (تاريخ الغرب القروسطي تجاه الاسلام)، دار المنتخب العربي، بيروت 1997.

14 ـ جيوبوليتيكا الأقليات، دار العلم للملايين، بيروت 1998.

الفهرس

2000/1/636

56

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع